باب النقد

الادب فى القرن التاسع عشر

فشا بيننا معشر المصريين داء عضال لم يجد أمامه من الاساة من يقاومه ويستأصل شأفته حتى طال به العهد وأصبح كأنه غريزة فى النفوس ، اعتدنا أن نعتقد العجز فى أنفسنا مهما بلغت قدرتنا وكفاءتنا فلا نحكم عقولنا في أى أمر مهما كان سهلا لا يستدعى للحكم عليه اجهاد الفكر أو الاستعانة بأولى النظر ظانين أن هذا من التواضع والنفور من الغرور ، لعمرك ماهذا الا الضعف والخذلان والجمود وقتل النبوغ حينما تبدو بوادره والحيلولة دون الترقي والفلاح . فترانا ان اختلفنا في قيمة عمل مالم نجد أمامنا حكما غير الرأي العام الذي نجله ونمجده وننصاع اليه . كلنا نعلم أن العامة مهما فاقوا الخاصة في العدد اضعافا مضاعفة لا يعتد برأيهم ذوو الرأي الثاقب لتجردهم من المقدرة التي تؤهلهم للحكم .

لست بذلك أبغي من كل فرد أن يسلك سبيل الغرور ويركب متن الشطط فيضل في بيداء أوهامه ويحكم نفسه في كل شيء سواء كان من ميسوره أو فوق مقدوره. بل ينبغي له أن يعرف قدره وفضله ويضع نفسه بعدل في موضعها اللائق بها فلا يتناول حكمه امراً لا يستطيع القضاء عليه فبذلك يستمر في رقيه لبعده عن الغرور ويكون عادلا في قضائه

ومن الناس من يستعين في حكمه بمعلوماته ومحفوظاته دون ان يكون له رأي ذاتي ويظن انه هو الذي اصدر هذا الحكم . كلا فانه واهم اذ الحقيقة أنه صادر من فئة من العلماء الذين حفظ أقوالهم وآراءهم فيجب عليه اذاً أن يتجرد من معلوماته ومحفوظاته عند الحكم لئلا تؤثر في فكره ويستملى عقله وشعوره ليصل

الى الحقيقة . ولا مانع من الرجوع الى المعلومات بعد اصدار الحكم علنا نجد فيها ما يعزز رأينا ويؤيد حكمنا.

ومن أدوائنا القتالة حب الشهرة التي لا تتفق مع الرقي إذ هما ضدان لا يجتمعان والمتفانين في حب الشهرة الكاذبة أساليب متنوعة فمنهم من يستعين باقلام غيره ومنهم من يسرق خطبة من الكتب المتفرقة وياليته عرف كيف يجمعها ويجعلها موضوعا مفهوما أو يترجم قطعة ينتحلها لنفسه ثم يذهب الى المدارس الساقطة ويلقيها بتشدق عجيب واشارات ملؤها الخيلاء على مجمع من تلاميذ المدرسة وخليط من عامة جيرانها فيصفقون له التصفيق الحاد فيمايل حضرة الخطيب المصقع تيها واعجابا ومنهم من يستأجر الكتاب لتحرير مجلة اوجريدة ينسبها لنفسه ويستمرئ إصدارها ولو كانت سائرة في سبيل الخراب وكفاه فوزاً بأمنيته أن يلقبه صغار التلاميذ بالكاتب الفاضل صاحب جريدة أو مجلة كذا ومنشئها . ومنهم من يسعى في تأليف مايسمونه بالجمعيات الادبية وينفق عليها من ماله الخاص تسهيلا لتأسيسها ليكون لها رئيساً وخطيباً وينقش على بطاقة زيارته اسمه بخط الثلث ويزينه برئيس جمعية كذا . ومنهم من يريد أن يمهر ابنته فضلا إن اعوزها المال والجمال واصبحت عانسا فيستأجر من يكتب لها كل اسبوع مقالا يملا بها اعمدة الجرائد وقد فاته ان المال اعظم شفيع للجهل والدمامة وسوء الخلق والسمعة وان شبابنا لا يهمهم ان تكون لهم عروس أديبة فاضلة كريمة الاخلاق . . حياة الشهرة الكاذبة قصيرة اذ لا تلبث ان تبددها شمس الحقيقة ويعقبها السقوط الابدي والافتضاح والحسرة على ضياع عمر طويل جريا وراءها وكان الاجدر به ان يصرفه في الرقي حتى يصل لدرجة تؤهله لاخراج ماينفع الناس من جليل الاعمال وما يكسبه شهرة صحيحة يتناقلها الخلف عن السلف

ليس من الحزم أن نجاري السلف في أحكامهم ونطبقها على عصرنا دون إعادة النظر فيها وتمحيصها لان الازمان تختلف في درجات مدنيتها ومعارفها : ولقد تمادينا في تمجيد الشهرة القديمة حتى كادت تغطي على نوابغ العصر وما فيه

كثير منا ينقب على مؤلفاتهم ويشتريها بأثمان باهظة ويدخرها كأنفس الاعلاق أو المخلفات المقدسة .

ابتدأت اللغة في عهد محمد علي باشا وخلفائه أن تدب فيها الحياة بعد موتها فنبغ في مصر فئة كانوا نجوم عصرهم فاهتدت بهم الامة في ديجور الجهل وكانت لهم اليد الطولى في تلك النهضة العلمية مثل : « عبد الله باشا فكري : وقدري باشا : ورفاعه بك رافع : وعبد الله افندي أبي السعود : ومحمد افندي عبد الرازق:ومحمد بك عثمان جلال : وعبد الله افندى نديم ومحمود افندي صفوت الساعاتي : والشيخ علي أبي النصر : والشيخ احمد عبد الرحيم » فمنهم من خدم الشعر والنثر ومنهم من عني بالتعريب ومنهم من اختص بالصحافة ومنهم من نفع القضاء . ونريد الآن أن ننظر في أعمالهم ونختبرها لاقصد الازدراء بل لنعلم ان كانت تنفعنا في عصرنا أم لا. فننشرها من رموسها أو ندعها نائمة مطمئنة محترمين رفاتها كأنها آثار تاريخية نستعين بها على درس اطوار اللغة والادب في مصر

عبد الله باشا فكرى

نبدأ بأميرهم في الصناعتين ألا وهو الشاعر الناثر عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف ، من كانت قدمه راسخة في العلوم العربية رقيقا في النثر والنظم، ولئن جارى زمنه فى التسجيع فان سجعه كان مقبولا سلسلا متينا تزينه سلامة الذوق قليل التكلف ومن أرق ما كتبه نثراً رسالته التي كتبها لاحد اصدقائه يصف بها الازهريين فى ذاك الزمان وقد حوت من رقيق الفكاهات ودقيق الوصف ومزايا العربية وفضلها وطباع أهل الازهر وأخلاقهم وأولها : « كتبت والذهن فاتر ، من وهن الدفاتر »

ومن جيد شعره قصيدته الرائية التي نظمها عقب الافراج عنه بعد اتهامه أبان الثورة العرابية وقد توجه الى سراى عابدين فأعرض عنه الخديوى توفيق باشا ولم يسمح له بمقابلته وأولها :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى وكبر اذا وافيت واجتنب الكبرا

ومنها

أيجمل في دين المروءة أتنى أكابد في أيامك البؤس والعسرا
وأحرم من تقبيل كفك بعدما ترامت بى الآمال مستأنساً برا
ولي فيك آمال ضمينى بنجحها وفاؤك لا أرجو سواك لها ذخرا
وقد مرّ لي فوق الثلاثين حجة بخدمة هذا الملك لم ألها صبرا
أرى الصدق فرضاً والعفاف عزيمة ونصح الورى ديناً وغشهم كفرا
وجاوزتها لا لي عقار يفيدني كفافا ولا في الكف قد أبتغى وفرا
ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال اقتادها قسرا
ولكنها نفس فدتك أبية تعاف الدنايا أن تمر بها مرا

وقد كانت هذه القصيدة أعظم شفيع له فسمح له الخديوي بالمثول بين يديه وحظى بصفوه ورضاه وأعيد اليه معاشه فقال في هذا المقام قصيدته المشهورة ومطلعها

لي الله من عانى الفؤاد متيم ولوع بمغرى بالدلال منعم

ومن أحاسن شعره قصيدته التي هنأ بها توفيق باشا حينما جلس على عرش الاريكة الخديوية وأولها

اليوم يستقبل الآمال راجيها وينجلى عن سماء العز داجيها

نشأ عبدالله باشا فكري في أواخر حكم محمد على باشا يتيما فتكفله بعض أقاربه ولم يعن بادخاله احدى المدارس بل اقتصر على تعليمه القرآن ثم أرسله الى الازهر فاتقن العلوم العربية المتداولة فيه واللغة التركية . ولو كان يعرف الفرنسية لكان أطول باعا وأعظم شأنا .

محمد فريد باشا

كان عالمًا فاضلا ، متبحراً فى العربية والفرنسية ، بارعًا في فقه أبي حنيفة ، شاعراً رقيقًا ، ذا إلمام تام بالجغرافية والتاريخ ، يحسن التركية والفارسية . ومن مآثره « كتاب الاحوال الشخصية » وبعض كتب مدرسية، وكان أعظم العاملين فى ترجمة قانون المحاكم وله كتاب جغرافية باللغة الفرنسية طبع في النمسا ، ومن رقيق نظمه قصيدته التي مدح بها الخديوى اسماعيل باشا ومطلعها

حيا الصفا مصر مسروراً بواديها ... وزارها الغيث فاخضلت بواديها

ومنها

وتيمتهم بها سكراً وما عرفوا ... السكر من راحها أم من لمى فيها
ووجها البدر قد تمت محاسنه ... أستغفر الله ما أنصفت تشبيها
فالشمس منها استعارت نور طلعتها ... والبدر أدنى فكيف البدر يحكيها
(ومنها) ورحلتي عن ديارى أمرها عجب ... لولا الاطالة كنت الآن أحكيها
كانت حدائق بالعرفان يانعة ... كما هي الآن يامحيي معاليها
وكعبة لبنى الآمال يقصدها ... للفضل والانبيا كانت توافيها
« سولون » « أودوكس » « أفلاطون » قد درسوا
في « عين شمس » وكانوا من مواليها

ومنها

وفضل مصر عظيم الشأن قدشهدت ... به الممالك قاصيها ودانيها
لكنها أصبحت من بعد عاطلة ... من العلوم التى كانت تحليها
أسباب ذلك لاتخفى على فطن ... له وقوف على أحوال ماضيها
إن الممالك كالافراد في شبه ... فالجهل يخفضها والعلم يعليها
وأنت أدرى بذا مني ومطلع ... على التواريخ لاتحتاج تنبيها
« لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها »

وله من قصيدة أخرى

رجوت علاه أن يشنف مسمعي ... ففي من الفتيان دوراً وقسما
أغن اذا ماجس أوتار عوده ... يكاد حنين العود أن يتكلما
(ومنها) ويا كفه هل أنت أو غيث ديمة ... أجبني فاني خلته لك توأما
رضيعا لبان أنما لكما الوفا ... ويكفيكما فخراً رضا مصر عنكما
وكان أخوك الغيث لا يعرف الندا ... وعلمته أنت الندا فتعلما

رفاعه بك

لا نبالغ إن قلنا أن هذا الرجل أعظم من نفع البلاد وهو الذي أسس مدرسة الألسن وعين ناظراً لها وقد هذب مئات من خيرة الرجال و كانت عزيمته لاتعرف الملل يقطع نهاره في التدريس ويحيي ليله في ترجمة الكتب النافعة وقد ألف وترجم وحده عدة كتب هذا بخلاف ما ترجمه قلم الترجمة بمراقبته مثل « كتاب لمونتسكيو » لم أتحقق من اسمه « ووقائع تليماك » وثلاثة أجزاء من « جغرافية مالت برون » ونبذة من « تاريخ الاسكندر » و « أصول المعادن » و « تقويم سنة ١٢٤٤ » و « مقدمة جغرافية طبيعية » وثلاث مقالات في « الهندسة » ونبذة في علم « الهيئة » وقطعة من « علميات رؤساء ضباط العسكرية » و « أصول الحقوق الطبيعية » ونبذة في « الميتولوجيا » ونبذة في « علم سياسات الصحة » (تقويم الصحة) ومما ألفه « أنوار توفيق الجليل في تاريخ مصر وتوثيق بني اسماعيل » و « نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز » وكتاب « المرشد الامين في تربية البنات والبنين » وكتاب « مناهج الالباب » وكتاب « قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر » ورحلته المسماة « تخليص الابريز الى تلخيص باريز » وغيرها وله قصائد عديدة مدح بها سعيد باشا واسماعيل وغيرها قالها في مناسبات مختلفة وأعظمها التي نظمها وهو في السودان وقد عين هناك ناظراً لمدرسة الخرطوم فأرسل هذه القصيدة الى

حسن باشا كتخدا مصر متوسلا اليه أن ينتشله من السودان بعد أن مات نصف من بصحبته من الاساتذة والقصيدة تشير الى أحوال السودان وعوائد أهلها ويشكو فيها ماناله من الظلم أثر سعاية أهل الفساد فسمحوا له بالعودة الى مصر بعد أن مكث هناك أربع سنين ومطلع القصيدة :

ألا فادع الذي ترجو ونادي ... يجبك وان تكن فى أي ناد

ومنها

رعى الحنان عهد زمان مصر ... وأمطر ربعها صوب العهاد
رحلت بصفقة المغبون عنها ... وفضلي في سواها في المزاد
وما السودان قط مقام مثلي ... ولا سلماي فيه ولا سعادي
بها ريح السموم يشم منها ... زفير لظى فلا يطفيه وادي
عواصفها صباحا أو مساء ... دواماً في اضطراب واضطراد
ونصف القوم أكثره وحوش ... وبعض القوم أشبه بالجماد

ومنها

خدمت بموطني زمناً طويلا ... ولي وصف الوفاء والاعتماد
فكنت بمنحة الاكرام أولى ... بقدر للتعيش مستفاد
وغاية مطلبي عودى لاهلي ... ولو من دون راحلة وزاد

وله تخميس لقصيدة من نظم الشيخ عبد الرحيم البرعي وهي متوسطة فى الجودة وهو معذور لان الاصل من شعر الفقهاء ومطلعها :

تبدي الغرام وأهل العشق تكتمه ... وتدعيه جدالا من يسلمه
ماهكذا العشق يامن ليس يفهمه ... خل الغرام لصب دمعه دمه

حيران توجده الذكرى وتعدمه

نريد أن نلقي نظرة عامة على نثره فلذلك نورد طرفاً من رحلته الى باريس قال في أول مقدمته : الباب الاول فى ذكر مايظهر لي من سبب ارتحالنا الى هذه البلاد التي هي دار كفر وعناد (كذا) وبعيدة عنا غاية الابتعاد ، وكثيرة المصاريف

لشدة غلو الاسعار غاية الاشتداد ، ومنها : « ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العيافة (كذا) والشلبنة (كذا) لامن الفسق فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء بخلاف الرقص في أرض مصر فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج (كذا) الشهوات وأما في باريس فانه نط (كذا) مخصوص لايشم منه رائحة العهر أبداً وكل انسان يغرم امرأة (كذا) يرقص معها فاذافرغ الرقص عزمها (كذا) آخر للرقصة الثانية ،، . الى أن قال « وبالجملة فمس المرأة أياما كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى (كذا) وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن عد هذا من الادب» . ومنها : « وقرأت كثيراً فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية التي تصل كل يوم مايصل خبره من الاخبار الداخلية والخارجية المسماة البوليتيقية وكنت متولعاً بها غاية التولع (كذا) وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية خصوصاً وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة المسقوبية (وقد تكررت لفظة حرابة بعد هذه الجملة مراراً فى الصحيفة التي تليها)

ولنذكر شيئاً من «وقائع تليماك» وهى من أشهر ما ترجمه فمنها :

« وقد استقام برهة من الزمان يقاوم الاعداء المتكاثرة ويصادم بشجاعته وصموله (كذا) جموعهم الوافرة ثم انتهى به الحال أن تثاقلت عليه الاحمال فكنت شاهد هلاكه ومشاهد استهلاكه وذلك أن أحد عساكر صور طعنه برمح فى صدره فاصاب أشد الصدور فانفلت زمام مطيته من كفه ووقع تحت أرجل الخيل يهوي الى حتفه فبادر نفر من العساكر القبرصية فجز ناصيته الدنية بعد أن كانت قصية وقبضها (كذا) من شعورها المرخية لتتفرج عليها البرية ولتكون علامة على النصرة الذهبية البهية .

ومنها قوله في أول المقالة الرابعة : « والى هذا الوقت كالبسة باهتة متحيرة ممتلئة من الحظ والسرور من هذه القصة المبينة حال تليماك وعن صفاته محيرة فقطعت بكلامها كلامه الفصيح حتى أنه من التعب يستريح قائلة له قد حان لك أن تتمتع

بلذيذ المنام بعد النصب الكامل من حكاية هذا الكلام لا خوف عليك هنا بل كل شيء يلائم مزاجك فاطلق عنان هواك في ميدان الهنا وذق طعم الراحة فالدهر لك مسالم وكل الخيرات المخلوقة تفيض عليك من عندنا فاغتنمها فأنت أسلم غانم وأغنم سالم »

يتبين للقارىء من أول وهلة أن هذا النثر لا يليق الا بالاطفال ولولا هذا السجع السمج المرذول لاستقام انشاؤه وانتظم . وما السجع الا عقبات وقيود تضل الكاتب وتجعله يترك الخيال والفكر وينصرف الى البحث عن ألفاظ يحشرها تذهب بطلاوة كلامه وتكون لغواً باطلا وتنميقاً لفظياً ممقوتاً عاطلا من المعاني وآيات البلاغة . وهو الذي هوى بالسلف الى دركات الانحطاط في الانشاء بل سرى داؤه الى الشعراء فأصبحوا لا يعتنون إلا بالالفاظ وتزيينها بالمحسنات البديعية ويظن الشاعر منهم أنه إن نظم بيتا موزونا وزخرفه بنوع أو اكثر من البديع ملك أعنة الشعر وهرولت اليه البلاغة طائعة خاضعة ولو كان كلامه ألفاظا مرصوصة وتركيبه خالياً من المعاني

كان رفاعه بك ينقصه الذوق السليم وهو روح الانشاء وملاك البيان . وكثيراً مايلحن فى تصريف الافعال أو يأتي بألفاظ عامية أو يكرر اللفظ مراراً دون أن يغيره بمرادف ويتصرف في ترجمته . وقد انتقده (البارون سيلفسز دوساسي) المستشرق الفرنسي الشهير الذى ترجم المقامات الحريرية وكليلة ودمنة الى الفرنسية إذ قال فى خطاب أرسله الى المسيو جومار فى شهر فبراير سنة ١٨٣١

« ولكنه يشتمل على بعض اوهام اسلامية » وأظن أنه يشير بذلك الى ألفاظ التعصب الديني الذميم المودعة في رحلته الى باريس إذ ليس من الادب واللياقة أن يستضيف قوماً يأخذ عنهم العلم ويسبهم في رحلته التي قدمها الى مشاهير مستشرقيهم ملتمساً منهم ابداء رأيهم فيها .

وقال فى نقده أيضاً : « وليست عبارته دائماً صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى تسويده وانه سيصلحه عند تبييضه وفي التكلم

على علم الشعر ذكر استطراد بعض أشعار عربية تخرج عن موضوع الكتاب وربما أعجب ذلك اخوانه من أهل بلاده »

وتكلمت بعض الجرائد أو المجلات عن نتيجة امتحان الارسالية المصرية فقالت عن رفاعه بك « وقد اعترض عليه في الامتحان بانه بعض الاحيان قد لا يكون في ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه وانه ربما كرر وربما ترجم الجملة بجمل والكلمة بجملة »

وقد ترقى في نثره قليلا في كتبه مناهج الالباب ، وأنوار توفيق الجليل ، والايجاز في سيرة ساكن الحجاز ، لا سيما حينما يترك التسجيع في عرض كلامه .

عبد الله افندى ابى السعود

نابغة من نوابغ عصره نشأ بناحية دهشور وحفظ القرآن ثم انتقل الى مدرسة البدرشين وكان أبوه ناظرها ثم انتخبه رفاعه بك فيمن انتخب لمدرسة الالسن فالتحق بها وسنه إذ ذاك أربع عشر سنة فبرع على أمثاله سيما فى اللغة العربية ثم درس العربية بدلا من أستاذه الشيخ حسين القمري ودرس لاخوانه « كتاب مغنى اللبيب » ثم عهد اليه تدريس الفرنسية وتصحيح تراجم الكتب الرياضية بالمهندسخانة . وكان متضلعا في الفقه إذ حضر « ملتقى الابحر » بمدرسة الالسن على الشيخ خليل الرشيدي المفتي ومع قيامه بوظيفة التدريس كان مواظباً على الحضور بالازهر فقرأ به عدة كتب نفيسة منها « الدر المختار » وتنقل فى عدة وظائف أخرى منها تدريس الجغرافية والتاريخ بمدرسة دار العلوم ورياسة قلم الترجمة الى ان عين في أواخر أيامه عضواً فى مجلس الاستئناف وله عدة مؤلفات منها « تاريخ مصر » وجانب من « التاريخ العام » وقد ترجم « نظم اللآلىء في السلوك فيمن تولى فرنسا ومصر من الملوك » و « قانون المرافعات المدنية والتجارية » وكتاب

« تاريخ مصر القديم » وكتاب « الانتيكخانة الخديوية » و « تاريخ محمد علي » وكتاب في « علم الجغرافية » وآخر في « الكيمياء الزراعية » وطرفاً من رواية « جيلبلاس » وقد اشتغل بالشعر ايضا وله بعض قصائد لم اعثر إلا على ثلاث أبيات من ضمن قصيدة طويلة له :

ومن قال ان الدولة اليوم وحدها تصفق منها الكف كي يصلح الامر
وماذا عسى يجدي اجتهاد لدولة وليس من الآحاد شد لها أزر
أما يقتضي أن نبذل الجهد كي يرى لها الشطر في اصلاحنا ولنا شطر

وهو الذي انشأ صحيفة « وادي النيل » سنة ١٢٨٤ ثم انشأ نجله محمد أنسي بك جريدة « روضة الاخبار » فكان هو محررها

محمد افندي عبد الرازق

كان من اقران أبي السعود افندي تعلم في مدرسة الالسن وبرع في العربية والفرنسية وكان اعظم العاملين في قلم الترجمة يضارع في فوته أبا السعود ولم أر أحداً من اقرانه أو اساتذته بلغ مبلغه في النثر المتين البليغ الذي لا يفترق عن كتابة العصر الحاضر وله قاموس في المواليد الثلاثة بالفرنسية والعربية محفوظ بالكتبخانة ولم يطبع وينقصه بعض حروف ومما ترجمه « خلاصة تاريخ العرب لسيديو » وقد مات قبل اتمام ترجمته فكلف علي باشا مبارك من أتم الجزء الصغير الذي كان باقياً منه وطبعه

واني لمورد طرفا من كتابته في هذه الترجمة ليقف القراء على متانة أسلوبه العربي وذوقه السليم في التعبير: قال في أول المبحث التاسع: « كان بين الاسماعيلية والقحطانية تنافس المعاصرة المؤدي الى اختلاف الكلمة ثم مالوا الى الوحدة السياسية لتوفر أسبابها من اغارة الحبشة عليهم بمكة واتحادهم في الاخلاق والعادات

وان سائرهم تمسك بأوهام العبادة الوثنية والعادات الجاهلية كمعاملة النساء معاملة الرقيق ووأد البنات مع التكبر الوحشي وحب الانتقام والمقاصة واجازة النهب بعد الانتصار واقامة القوة مقام الحق وقرى الضيف مع حرمان النفس تشوفاً الى السمعة بين القبائل وحب شرف النفس الموجب للبسالة والحماسة والمحاماة عن المظلوم وتقديم الوفاء بالوعد على الحياة وتزيد على ذلك شهواتهم النفسية فانها اكبر تلك الخصال غلبة وظهوراً ومن ذلك يعلم أنه متى اتجهت عقولهم الهائجة المخاطرة الى شيء وثبوا اليه وثبة واحدة وذلك يوجب الوحدة في اللغة المتيسر بعضها بواسطة اختلاف القبائل »

عبد القادر افندي نديم

صحافي شهير وكاتب أخلاقي اجتماعي طويل الباع في الخطابة . وكان اذا اقترح عليه أي موضوع في محفل من المحافل قام بين الناس خطيباً مرتجلا طلق اللسان فصيح الالقاء سريع الخاطر مستمراً في خطابته ساعتين أو ثلاثة دون أن يتلعثم لسانه وهو الذي أنشأ مجلة «الاستاذ» و «الطائف» و«التنكيت والتبكيت» وفضلا عن نبوغه في النثر فانه مهر في المجون والازجال والمواليات وصحيفته الاخيرة حافلة بهذا النوع وكان يعقب الموضوع الهزلي بالتبكيت والموعظة الحسنة

ومن جيد مقالاته التي أمكنني العثور عليها «بمن أقتدي اذا اختلفت الآراء» و «هذه يدي في يد من أضعها» و «حرب الاقلام بجيوش الاوهام» ولنذكر قطعة من مقالته الاولى لنقف على أسلوبه

«اقتد بمن إذا أسبغت عليكم النعم كان مهنئاً معك واذا نزلت بك مصيبة كان لك معزياً فان اخلاص النصح من غيره لايتأتى إلا اذا عاد لبطن أمه وولد مرة ثانية في أرض مس ترابها جسمك وليداً وخدمت في اصلاحها شاباً ودبرت شأنها شيخاً وكيف يقتدي العاقل بنازح عن دياره وقد لطفت هواء وعذبت ماء وطابت

مقراً . وكثرت خصباً . فلم يرض بما رضي به آباؤه . واستهجن ما استحسنه أجداده وقطع رحماً يجب صلتها عليه .

وله رسالة ضمن غالبها بالآيات القرآنية أولها :

«لاحول ولا قوة إلا بالله اشتبه المراقب باللاه واستبدل الحلو بالمر وبيع الدر بالخزف والخز بالخسف وأظهر كل لئيم كبره إن في ذلك لعبرة»

محمود الفتى صفوت الساعاتى

ولد هذا الشاعر المجيد بالقاهرة سنة ١٢٤١ وانتقل الى الاسكندرية مع أبيه وهو فى الثانية عشر ثم عن له حينما بلغ العشرين أن يحج البيت الحرام وهناك التحق بأمير مكة الشريف محمد بن عون فكان له سميراً وشاعراً لايفارقه في حله وترحاله وغزواته ولما عزل الشريف هاجر معه الى مصر ثم سافر الى الاستانة بعيته وفى عام ١٢٦٨ آب الى القاهرة وانتظم فى سلك المعية الكتخدائية زمناً ما ثم تعين بمعية الخديوي سعيد باشا ثم تقلب فى عدة وظائف الى أن عين أخيراً عضواً فى مجلس أحكام الجيزة والقليوبية . وتوفى سنة ١٢٩٨

كان من فحول الشعراء المطبوعين رقيقاً حسن الذوق غزير المادة متوقد الذكاء نبغ فى عصر كاد الشعر فيه يندرس فهذبه وأعلى شأنه فى مصر والحجاز وبزغ فى سماء القريض شمساً مشرقة استنار بها كل من عالج هذه الصناعة من مواطنيه .

ومن آيات بلاغته قصيدته الهمزية وبها نفحات عظيمة في الفخر وأولها .

رقت لرقة حالتي الاهواء ... وحنت عليّ البانة الهيفاء

وبكى الغمام علي من أسف وقد ... كادت تمزق طوقها الورقاء

ماذا تريد الحادثات من امرىء ... من جنده الشعراء والامراء

دعها تمد كما تريد شباكها ... فلربما علقت بها العنقاء

أنا ذلك الصل الذي عن نابه ... تلوى المنون وتلتوي الرقطاء

وفمي هو القوس الارن ومقولي ال ... وتر الشديد وأسهمي الانشاء

فكر ينظم في البديع فرائداً من دونها ماتلفظ الدأماء

وله من قصيدة دالية مطلعها : —

دعيني فما في الامر غير التوعد فختي متى إدمان هذا التهدد

ومنها :

ألا في سبيل المجد نفس عزيزة يعز عليها أن تذل لمعتد
فما لك لاتأوين لي من صبابة رويدك ان الحسن غير مخلد
فكوني كما شاء الوشاة وصدق زخارفهم واصغي لقول المفند
فليست يد الهجران قاتلة اموى. يهز من السلوان كل مجرد

ومنها :

فلا فضحت نظم الجمان قصائدي ولا بلغت بي رقتي كل مقصدى
اذا لم أطوق مجده بقلائد بغير حلاها الدهر لم يتقلد
فرائد مدح في سلوك مناقب لمنفرد بالمكرمات مسود
وان لم أسير بالقوافي ركائباً فلا قيدت شعري محابر منشد

محمد بك عثمان جلال

كان مولعاً بالآداب العربية والافرنجية وقد تقلب في عدة وظائف الى أن عين قاضياً بمحكمة مصر المختلطة . وترجم في أوائل أيامه حينما كان بنظارة الحربية بعض كتب عسكرية كما أشار بذلك قدري باشا في تقريظه كتاب « الامانى والمنه في حديث قبول وورد جنه » ثم عكف على تعريب طائفة من مؤلفات بعض من مشاهير الشعراء والكتاب الفرنسيين . فمما ترجمه عن « كورنيي » رواية « أوراس » لم تطبع وهى محفوظة عند ورثته . ومما عربه عن « راسين » رواية « أتالي » ولم تطبع أيضاً ورواية « أستير : وايفيجينى : واسكندر الاكبر » وهذه الروايات الثلاثة مطبوعة في مجموعة واحدة باسم « الروايات المفيدة في علم التراجيده » ومما ترجمه عن « موليير » رواية « ترتوف : والنساء العالمات : ومدرسة الازواج : ومدرسة النساء »

وهي مطبوعة في مجموعة سماها « الاربع روايات في فن التياترات » وعرب « بول وفرجيني » للكاتب الفرنسي الشهير (بيرناردان دوسان بيير » وأغلب حكايات (لافونتين) وسماها «العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ» . وقد امتاز فى الازجال هو وعبدالله افندي نديم والشيخ محمد النجار وكانت له ملكة راقية فيها تزينها فكاهات لطيفة ونكات ظريفة وبها كتب معظم معرباته وله عدة أزجال متفرقة منها «رواية المخدمين» وهي من وضعه ونبذة فى «تاريخ ولاة مصر» ابتداء من عهد محمد على باشا الى عصرنا هذا وآخر فى « الأكولات » وغيره فى « الازهار » وقبل أن نفحص هذه التراجم نورد كلمة نعرف بها مزايا (راسين) و (موليير) ولو أنها لا تخفى على معظم القراء

كان (راسين) من فحول الشعراء الكلاسيك المحزن وتختلف رواياته المحزنة (تراجيدي) عن روايات (كورنيي) برقتها وقربها من الحقيقة مع سهولة مبنى الموضوع وبعده عن تعقد الحوادث ويزين شعره فن رقيق وذوق سليم وروح مؤثرة تأخذ بمجامع القلوب. وغير خاف أن الشعر الكلاسيك عند الغربيين هو بمثابة الشعر الجاهلي عندنا. فاتت المعرب جميع هذه المزايا فلذلك عمد الى تعريبه باللغة العامية مع تصرف عظيم فجعله زجلا مضحكا ملؤه النكات والفكاهات المصرية المتداولة بين العامة .

أصبحت الترجمة لا تنفع مريد التمثيل ولا محب الادب ولا كلفاً بالحوادث والوقائع ولا مغرماً بالازجال لانه خلط بين الجد والهزل والحزن والمزاح حتى صارت عاطلة من مزاياها الادبية والنظمية والتمثيلية ومن فكاهاته فى رواية «ايفيجينى»

لو كنت يوم دافعت عنها بهمتك ... ما كنتش انذليت وصغرت عمتك
لا أب فيك رحمة ولا جوز تتشكر ... إلا انت واحد بربرى مخك عكر

ويعد (موليير) أول من رقي التمثيل المضحك فى فرنسا ولم يباره في هذا الفن مبار لغاية عصرنا هذا ولم تزل رواياته خالدة على جميع المسارح الاجنبية . كان يمثل الطباع والسجايا والعادات تمثيلا لا يفترق عن الحقيقة بشكل وحيد في بابه تزين انشاءه بلاغة نادرة وذوق رفيع . وقد اسعد اللغة العالية والمتداولة

الاستعمال باشعار وكلمات واصطلاحات ذهبت مذهب الامثال .

فان بحثنا عن شيء واحد من هذه المحاسن طي ترجمته لم نجده وحاشا أن نعتبر أن هذه الازجال تمثل لنا آيات (موليير) الباهرة بل هو بريء منها إذ في نسبتها اليه حطة وازدراء .

كلنا نعلم أن رواية (تارتوف) هي صفوه ما ألفه (موليير) بل أحسن رواية مضحكة في جميع التمثيل الفرنسي فمسخها المترجم وقلب موضوعها وسماها (الشيخ متلوف) ونقل الحادثة الى مصر بين هذا الفقيه وكعب الخير وأم النيل وبهانه وغيرها فان اعتبرناها زجلا من أزجاله يقطع به العامي وقته وجدناها أضعف من أزجاله الاخرى واني مورد طرفا منها لنقارنه بغيره

الفصل الاول

أم النيـل

يا الله بنا نروح قوام يا كعب خير دولا جماعـه الكل مافيهمش خـير

كعب خير

هو جرى حاجه هنا ياستنا حتى نروح برا ونترك بيتنا

أم النيل

كتر الكلام مالوش نفع يا الله بنـا راح اقعـد اتلفت هنـاك والا هنـا

كعب خير

بس الخروج دا ليه وانا شايفه الجميع من تحت أمرك كلهم سميع ومطيع
والكل تحت اليد فللي تأمريه تقـدمي اللي تقـديمه وتأخريه

وقال في رواية المخدمين :

وتغسل الحوض الكبير وتبخره وفي الكنيف الابريق دائماً تحضره

وعندنا القربه وعندنا الحمير ... ملا لنا القربه من البحر الكبير
وتروح للجامع تجيب ستين رغيف ... لكن تنقيهم من العيش النضيف
وكل يوم تبيع لنا العيش القديم ... ويكون معك في السوق عبد الشيخ سليم
وكل شيء تسلمه لي بالعدد ... أوعى يغشك حد في السوق ياولد
طهق من الخدمة وكتر المرمطه ... والشيخ دا لاخر يحب المظرطة
قوم ياولد هات الجرايه وعدها ... ونضف البغلة قوام وشدها
ويطخخه مشوار لتمن السيدة ... من شان عزومه وكل يوم على كده
حتى انبرى عظمه وجسمه انتحل ... كأنه اتولد لاشك في طالع زحل

ترى الفرق شاسعاً بين الاثنين وان السهولة والانسجام يطاوعانه في الاخير: ليت شعر ما الذى حداه الى تعريب هذه الروايات التمثيلية ؟ أيريد أن يقدم بها التمثيل في عصره أم ينفح القراء بمعجزات (راسين وموليير) أم يهدي اليهم من الحوادث والوقائع مايتفكهون به فى أوقات فراغهم ؟ وايم الحق إنها لاتصلح لهذا ولا لذاك حتى أن اعتبرناها الاعتبار الاخير سئم منها القارىء وفضل عليها (روكامبول) و (اللص الشريف) وأمثالهما من الروايات المحشوة بالحوادث الغريبة والوقائع المدهشة .

تطاول قلم المعرب أيضا الى الروايات القصصية التي تعد من امهات كتب النثر الفرنسي فترجم رواية (بول وفرجيني) وسماها (الاماني والمنه في حديث قبول ووردجنه) : وكلنا نعلم أن هذه الرواية تعد في نوعها درة يتيمة لم يوفق أحد قبل مؤلفها ولا بعده أن يأتي بمثالها أو ينسج على منوالها فكانه دخل في قلب هذين الطفلين البائسين وقرأ ماخط فيهما من آيات الهوى العذري الطاهر وأخرجه للناس في قالب رقيق ساحر كانه انغام شجية تستهوى الافئدة رقة وعذوبة :

عمد المترجم في تعريبه الى السجع السمح فمسخ هذه الآيات البينات وأقبر

محاسنها وكساها ثوبا من الركاكة تنفر منه القلوب قبل الاسماع واني لمورد منها بعض جمل ليحكم القراء عليها. قال في أول الكتاب .قال الناقل لهذا الخبر الصحيح والقول الفصيح ، بينما أنا في سياحتي على كفى تعبي وراحتي واذا بجزيرة من جزر بحار أفريقية فنزلت فيها على الجهة الشرقية فرأيت تحت سفح الجبل من هذا المحل بمينا يقال لها مينا الوامس أرضا أفلحت لبعض الناس ورأيت بها أثر عشتين صغيرتين فى وسط حوض كائنتين .

ومنها :

إني لا أطمع فى هذا الفخر إلا لأنشره على ورد جنه واجعل ذكرها به يرن أعظم رنة حتى تسير بذكرها الركبان وتصير به سيدة البنات والنسوان وانت يا أبتي بالله عليك وحق خضوعي بين يديك إن كنت تعلم طرفاً من الغيوب وانه سيجتمع المحب بالمحبوب فحدثنى بالخبر الصحيح وادخل علىّ التفريح

وقبل التكلم على «العيون اليواقظ» نذكر كلمة على « لافونتين » لنعرف درجته في الفضل .

اشتهر هـذا الشاعر الفرنسي بقصصه وحكاياته التي ذاع صيتها في الآفاق وترجمت الى جميع اللغات ولم ير فى جميع الامم شاعر تفنن مثله فى أسلوبه الذى جمع بين شائق القريض وبدائع التعريب وسلاسة التركيب ورائق الوصف ولذيذ الفكاهات وطلى الملح .

كان قادراً على تصوير النبات والجماد والحيوان قدرته على تمثيل أشخاصه تمثيلا لا يشوبه التقصير ولا المغالاة حتى أصبحت حكاياته نافعة لتهذيب الفتيان قبل الصبيان ومهما كنت قادراً لا أستطيع أن أوفي هذا النابغة حقه في المجد الاثيل والفضل الجزيل وما على القارىء إلا أن يرجع الى الاصل الفرنسى ويتمعن فيه ليتجلى خفي معانيه ودقائق مبانيه .

سلك المعرب سبيل التصرف المخل وكان مسوقا اليه لركونه الى النظم فى التعريب إذ لا يتيسر لاشعر الشعراء أن ينقل الى الشعر شيئا دون تصرف حتى المترجمين من الافرنج لا يترجمون النظم الا نثراً ولو كانت الترجمة والاصل من لغتين مصدرهما لاتينى ليحافظوا على روح الشاعر وأسلوبه ومعانيه الدقيقة حتى يكون الاصل والترجمة صنوين أو توأمين

توخي المعرب في كتابته الازجال والادوار والاراجيز وشيئاً قليلا يعد على أصابع اليد من بحور العروض . وغير خاف أن الرجز ممقوت ولا يعتد به الشعراء لانه من خصائص (الفقهاء) إذ ينظمون به متونهم وعبر عنه بعض الفضلاء بحمار الشعراء .

فبعمله هذا ذهب بطلاوة هذا النظم البديع والمحاسن الرائقة وضاعت الفكرة المنشودة وأصبحت الترجمة لاتليق ان تعزى بشكلها هـذا الى عطارد الزمان في القصص والحكايات .... ومن انعم النظر فى قريضه بهذا الكتاب وجده لا يفترق تقريبا عن نثره الذي أوردنا طرفا منه وما على القارىء إلا ان يراجعـه ليتبين صدق ما قلناه

الشيخ احمد عبد الرحيم

ولد بطهطا عام ١٢٣٣ وتلقى العلوم العقلية والنقلية بالازهر ثم عين مدرساً للنحو والصرف بمدرسة التجهيزية فالمهندسخانة فالحربية ثم أسندت اليه أخيراً رئاسة تحرير الوقائع المصرية . اشتغل بالآداب والنظم والنثر وله مؤلفات منهـا « منظومة في الصرف » و « نهاية القصد والتوسل في فهم قولة الدرر والتسلسل » ورسالة فى « علمي العروض والقوافي » وجملة رسائل نحوية أحضرها (النقطة الذهبية في علم العربية) وديوان مدائح نبوية لم يطبع مرتب على حروف المعجم سماه « در الشرف المنظم في مدح النبي الاعظم » وكل قصيدة منه زهاء خمسين بيتا

وقصائد ومقطعات عديدة جيدة منه ما كتبه لاحمد افندي فارس صاحب الجوائب بالاستانة في ذيل رسالة

يا أيها البحر قد أهديتني دراً فليت شعري ماذا اليوم أهديك
أخلاقك الغر مثل الشمس ظاهرة فأنت في غنية عن وصف مطريكا
أجمال مدحك لا أرضى به واذا فصلت أخشى قصوراً ليس يرضيكا
فانما هو راح لست آمن من إكثاره نشوة تنسى معاليكا
أنت الخضم لعلم لا مراء به فكنه للحلم وامنحني تغاضيكا

وقال : — يقول محرر الوقائع لما رأيت اللآلىء من البحر وقلادتها لا تليق لا بذلك النحر زاوجت قصيدة مؤلف الجوائب فيه محافظاً فيها على غر قوافيه فانصرف معناها اليه وصار مقصوراً عليه فحق لها أن تختال به فى حليتها ولو كانت بنت ليلتها تجد اليه السرى وهذا كما ترى :

علم الهوى لم يبق في بقيـة فأرادني بأبى وقال هـدية
أهدي الى عبد الرحيم تحيـة غراء يصحبهـا الثناء الطيب
كم لي تقول امدحه مدحاً باهراً وارصد لحلبته النجوم مساهراً
هبني أجيد المدح لـكن زاهرا ت صفاته كالزهر ليست تحسب

والقصيدة تبلغ ثمانية وثلاثين بيتاً

الشيخ علي ابو النصر

كان حبراً فاضلا في الـكتاب والسنة متضلعاً فى العلوم العربية أديباً شاعراً ناثراً لطيف المعاشرة متقرباً من الملوك والامراء طيب المنادمة والمفاكهة حاد الذهن لا يغالب في المناظرة وله مواليات وأزجال لطيفة عبثت بها يد الاهمال والشتات فلم يعثر عليها وقت طبع ديوانه وقد سافر مرتين الى الاستانة الاولى في زمن عزيز مصر محمد علي باشا حينما احتفل السلطان عبد المجيد بختان أنجاله طلب من الخديوي

أن يبعث الى الاستانة بعض العلماء والامراء من مصر لحضورهم الوليمة الملوكية فانتخب من العلماء الشيخ التميمي مفتي الديار المصرية والمترجم له . والثانية كانت مع الخديوي اسماعيل باشا في زمن السلطان عبدالعزيز . هذا جل ما عثرت عليه من ترجمته في رثاء احمد خيرى باشا ناظر المعارف له. ومن لطيف شعره قصيدته التي قالها وهو في الاستانة يمدح بها سلطان باشا ومطلعها :

حيي وفي كفه كاس الطلا فبدت ... في خده من شعاع الكاس هالات
ظبي من الترك ما أحلى شمائله ... شقائق الورد في خديه شامات

وقصيدته الدالية ومطلعها :

كتب المشيب بابيض في أسود ... صحفا أشار بها لقرب الموعد
وروى بها عنى حديثًا يقتضي ... بفضاء ما بيني وبين الخرّد

وقصيدته الغزليه وأولها : —

زارت معطرة الازار من بعد ما شط المزار
هيفاء تفعل بالنهي ألحاظها فعل العقار

وقصيدته التي قالها في ليلة أصابه توعك أقلقه

خيالات يصورها الغرور وأوهام يضل بها الغرور
وأوقات زخارفها زيوف وديدنها التصرم والمرور

وقصيدته الحكمية ومطلعها :

إلام تصوب الاوهام غيا وتنشر ما طواه الرشد طيا
وفيم تقودنا الاطماع طوعا الى ما يغضب الحر الابيا

وقصيدته التي يمدح بها الخديوى اسماعيل باشا ومطلعها :

سفرت فكاد البدر أن يتلثما ورأي الشقيق خدودها فتبسما

وخمريته المشهورة وأولها :

بنت كرم دونها بنت الكرام وهي بكر زفها ساقي المدام

ومنها: آنس الندمان ناراً إذ بدت فأتوها لاقتباس واقتسام
فرأوها محض نور تزدرى بالنجوم الزهر في وقت الظلام

إن فى هذه العجالة لكفاية للقارىء إذ بها يستطيع أن يقف على ما كانت عليه اللغة في عصرهم ويستنتج مما قدمناه أن عيوب ذاك الزمن تنحصر فى السجع والاعتناء بالالفاظ والمحسنات البديعة دون المعاني والخيال وعدم توفر سلامة الذوق عندهم وهى ملاك البيان كما أنهم لا يتوخون فى ترجمتهم مراعاة الاصل ويتصرفون تصرفا مخلا . غير بعيدي النظر حتى أنهم كثيراً ما تفوتهم فى الترجمة المعاني الدقيقة. وكان أغلب شعرائهم ينسجون على منوال بعض القدماء الذين لا يعدون من الشعراء ويأتون بنفس معانيهم مع تغيير طفيف فى الالفاظ والوزن دون أن يعبروا عن وجدانهم وشعورهم . وقد لاحظت أن كثيراً منهم يتوخى فى مقدمات قصائده معنى من الغزل أو الوصف أو المدح يكاد لا يغيره فى أغلب شعره . فان تغزل لا يتعدى ذكر الايك وغصون البان والحمام ينشد ألفه وبكاء الغمام والفتيان وعذارهم والفتيات ورضابهن المعسول وقامتهن الهيفاء . وان مدح لم يتجاوز البشرى من اقبال العز واستنارة الاكوان بطلعة الممدوح المشرقة . وموافاة المجد والفخار والعلو الى السماك وغير ذلك هذا وانى أكرر القول بان هؤلاء مهما وصموا بالعيوب فاننا نجلهم ونمجدهم إذ كانوا زعماء تلك النهضة العلمية فى عصر كادت تنطمس فيه معالم اللغة والادب ولولاهم لقضى عليهما القضاء الاخير .

منصور

تاريخ فتى من أبناء مصر

كتبه بالفرنسية الدكتور أحمد ضيف والمسيو ونجان

عثرت منذ ثلاثة شهور تقريباً على هذا الكتاب بمكتبة (الاجانس) فقرأت جزأ منه باشتياق ثم حالت أعمالي دون الاستمرار فيه فطويته في ركن الى أن سنحت لي الفرص بالعودة اليه فأتممته بين لذة واعجاب

رأيت أن الواجب يقضي على الا أغفل هذا العمل الجليل الذي حاز الاعجاب في فرنسا وباريس بدليل أن الطبعة التي وقعت فى يدي هي الرابعة ولم يمض على ظهور الكتاب أكثر من سنة أو أقل

ليس الدكتور ضيف محتاجاً لتعريف بيد أنه من الافراد القلائل الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة والذين تملصوا من جمود التربية الازهرية وأخذوا يخطون صوب الرقي خطوات واسعات تتناسب مع المدنية العالمية

عرفت الدكتور مذ كان طالباً بمدرسة دار العلوم فكان يؤم متنزه الجزيرة بجوار الكوبري في بعض الاحيان وقت الاصيل وصادف أنه جلس بجانبي فحصل التعارف

وجدته وقتئذ رقيقاً تواقاً لمعرفة كل نافع سليم الذوق دقيق الملاحظة صائب الافكار ولقد قلت فى نفسي : سيأتي يوم يغبطه الناس فيه على فضله

فرقت بيننا الايام وسافر فى العام التالي مع بعثة الجامعة ولما آب من سفره انتظم في سلك أساتذتها وانشأ يكتب في مجلة السفور قطعاً باهرة أذكر منها رواية بعنوان (هي) كتب منها نحو سبع قطع ولم يتمها . كان فيها الوصف بالغاً حده من الدقة وحسن التصوير والعواطف تلتهب التهاباً باسلوب ظريف لا يشوبه تكلف تزينه رشاقة جذابة ورقة فتانة

أما المسيو بونجان فكان أحد الاساتذة الفرنسيين بوزارة المعارف وكان يدرس آداب اللغة والانشاء بمدرسة المعلمين العليا وقد أخذ مكافأته وسافر في العام الماضي ويعد أعظم كاتب فرنسي بين أساتذة الوزارة وله مؤلف آخر كتبه وحده بعنوان «أخبار الساعة الثانية عشرة» وقد كتب مقدمته الكاتب الذائع الصيت رومان رولان وهو الآن رئيس تحرير مجلة (لانوفيل ايتيرير) وهي من المجلات الادبية الشهيرة

يضطرنا البحث لمعرفه نصيب كل من الكاتبين فى هذا العمل لنسند الى كليهما ما يستحقه من الملاحظات والنقد . ومن البدهي أن المسيو بونجان لايدرى أسرار الطبائع والعادات المصرية بالتفصيل ولا يعرف تلك الحوادث فتكون اذن مهمته في هذا العمل تنقيح الانشاء والترتيب الفني لسرد الحديث ويكون الدكتور ضيف هو صاحب الفكرة ومؤلف الكتاب

الكتاب يشمل تاريخ حياة «منصور» وهو ابن طالب بمعاهد الاسكندرية الدينية وشيخ طريقة يعرف بالشيخ الصغير وجده شيخ طريقة أيضاً ويعرف بالشيخ الكبير وهذا الاخير كان أعظم نفوذاً واعتباراً واحتراما

أمضى أهل منصور شطراً من حياتهم بالقاهرة حدثنا فى خلالها منصور عن حضرات الذكر وشعوذة المشعوذين من أرباب الطرق وحفلات المحفل والموالد والزار وصور لنا طبائع وعادات كثير من اقاربه ومريدي والده وجده وسرد لنا كثيراً من الخرافات السائدة بين العوام والتي كان يسمعها من افواه أهله ومعارفهم ومن ألطف ما صوره لنا صورة الكتاب بمصر وفقيهه وهي من ألذ الفكاهات الواقعية التى تمثل بؤس هؤلاء الصبية وما يقاسونه من شظف العيش وسوء الحال واني اترجمها للقراء بنصها وفصها : —

« كان والدي يعرف الشيخ الذي يدير كتاب حينا ، وأوصاه علي فكان يأتي كل يوم لمنزلنا بعد طلوع الشمس بقليل زميل اكبر مني سناً ليصطحبني الى

الكتاب وكنت أسمعه يناديني في السلم : يامنصور ! يامنصور

كانت رنة هذا النداء تزعجني وكثر ماهونت على أمي وطأة الهم باعطائي مليما وفي بعض الاحيان قطعة جبن أو كعك فأضعها في مخلاتي التي تشمل عادة رغيفاً ملفوفاً بمنديل وبعض أوراق من المصحف واللوح

ولقد أوقظت في الصباح على غير مايرام فكنت كئيباً ولم أهتم بشيء في طريقي وحينما قاربنا المسجد سمعت دوي الاصوات فزاد انقباضي ثم صعدت الدرجات الثلاث وبلمحة عين الفيت ما كنت أمقته اذ شاهدت سرب الزملاء متربعين يحفظون دروسهم باصوات عالية في الواحهم وقد أمسكوا بها باليدين وكان اهتزازهم المستمر يطبع على ظهورهم حركة الوزن الموسيقي وفي هذه الجلبة التي تصم الآذان ووسط هذا الاضطراب تربع سيدنا على جلد شاة وهو ثابت في مكانه دون حراك فتوجهت اليه وقبلت يده

— اجلس هناك وأشار الى قطعة من حصير بال

أمعنت النظر في هذا الكتاب فاذا هو بهو كبير مرتفع السقف مزخرفه له ثلاثة جدران عاطلة ومكان الرابع مدخل واسع تمر منه الشمس فتملأ المكان رغم الستار المسدل ، وفي أحد الاركان زير قذر وكوب علاه الصدأ وقد ركب على أحد الجدران رفان أو ثلاثة ليضع عليها التلاميذ مخاليهم وخبزهم

ورغماً من كون سيدنا من أصدقاء والدي وقد تعطف علي وجعلني أجلس على كثب منه ما كنت لاميل اليه ، وكل ما كان يصدر منه يظهر لي قاسياً وظالما وكنت أشعر في حضرته بتضاؤلي وقد ضل فكري حتى أصبحت لا اكيف وجودي وعملي وكانني ضللت بين الجموع ، وكنت أجد هناك شيئا جديداً لا احتمله

كنت أشعر وأنا في الطريق أو بجانب والدي أو عمي مصطفى انني امتاز عن باقي الصبيان وكانني قبلة أنظار اخواننا في الطريقة اذ تتجه الى أبصار تشف عن الحنان والعطف

ما كنت استطيع ان أوجه طرفي لغير المعلم وما كنت أرى غير لحيته التى اشعلها الشيب وهيأته التي تدل على عدم الاكتراث وكانت له وسادتان احداهما يضعها تحت جلد الشاة والثانية خلف ظهره وكان يرى طابع ظهره فوق الحائط

تربع على تلك الحال أمامنا بين مقرعته الطويلة وصندوقه الصغير الذى يضم اقلامه حتى اضحى يخيل الى انه هو وقاعة الكتاب المرتفعة العارية الكئيبة وحدة لاتتجزأ ، حتى ان ضوء الشمس الذى كان يفترش الجدار أمام المدخل ظهر لي كأنه يخالف مثيله في الطريق ، وقد ساد الانسجام بين هذه الشمس الباردة المحزنة المحدودة الشكل والتي لايتأتى تجنبها وبين شخص سيدنا

بلغ عدد الصبيان الاربعين على الاقل وكل منا يحفظ درسا مخالفا للآخر وكنت لا افهم شيئا من السور المقدسة تقريبا وفي ظرف ساعة كان سيدنا يدعونا مشيراً الينا بطرف مقرعته لنسمع دروسنا وكنا نذهب اليه كل بدوره ولوحه تحت أبطه فمن حفظ درسه أمره سيدنا بمحوه وكتابة درس جديد غيره ومن لم يحفظه عاد الى مذاكرته ويفوته الدرس .

وكان يعهد بصغار الصبية الى من هو أكبر منهم سنا ليراقب نسخ القرآن في الالواح وكان هذا العمل يشغل التلاميذ لغاية الظهر

وكان أغلب التلاميذ لايتناولون غذاءهم في بيوتهم وكنا نأكل خبزنا وجبننا على درجات سلم المسجد وكانت بائعة عجوز تبيع لنا قصب السكر والفجل والحمص الاخضر (الملانة) وكانت رائحة الطعمية فوق المقلاة تعم الطريق وتحرض شهوة الطعام . كان من المتيسر شراء أنواع الفطائر والكعك والحلوى الملونة بمختلف الالوان ولكن الغلمان فقراء إذ كانوا يؤمون الكتاب حفاة ممزقي الثياب وعلى رؤوسهم قلانس قذرة وكثير منهم يقنع بخبزه بغير ادام

كانت فكرة العود الى الكتاب كافية لتنغيص ساعة الحرية هذه فكنت انظر بحزن الى الموضع الصغير الذي كانت تهب فيه الرياح السافيات . وكان الجزء

الذى كسته الشمس لا يمر به الا ظل الحدأ المتقطع والتى كانت تحلق في الجو فوق رؤسنا

وفى بعض الايام كان القيظ يلفح وجوهنا كالنيران فكنت اشعر انني في حاجة الى السكوت والسكون وتبديل مكاني كل خمس دقائق ، وكان يخيل الى أن النهار شديد ابيض يعمي الابصار لان الحرارة كانت عمودية شديدة كأنها القضاء الساحق وكانت الغرفة بشكل واحد لا يتغير تنقبض منه النفوس والابدان

عدنا الى الكتاب ملبين نداء العريف وأول تأثير يجول بخاطري ما أجده في الكتاب من الظل والنسيم البارد المحبوب ولكن سرعان ماينبدل اذ كنت بعد خمس دقائق آسف على الهواء المحرق الخارجي

— صاح سيدنا قائلا : أحذركم من القراءة بأصوات منخفضة

فلا تلبث الظهوران تعود الى حركتها من الاهتزاز وتعود الحياة الى الكتاب فيضحي كأنه آلة عظيمة الجلبة ، وكانت تميز وسط هذا اللغط المزعج أصوات متباينة

ولما يجد سيدنا أن الحركة الميكانيكية تحسنت وانتظمت ليتغذى بدوره ويشرب الحساء فى طبق يضعه امامه على الارض . ولقد شاهدت خيوط الملوخية يكثر عددها شيئا فشيئا وهي معلقة بين لحيته وطبقة ثم يأخذ القلة ويجرع منها بهذا الشكل

كنا نرصد حركاته واثقين من انه سينام بعد الطعام ، وحينما نرزح تحت وطأة الحر ينتهي الامر بأن ينام أيضا ، وكان العرق يتصبب من جباهنا ويسيل فوق الواحنا فيلوث وجوهنا . وكان الزير دوما محاصرا بسرب من الصبيان ينتظر كل منهم الكوب بدوره . خفتت الاصوات شيئاً فشيئاً فاستيقظ سيدنا صائحاً .

— إياكم والقراءة باصوات خافتة ! هاج الكتاب وماج كآلة بخارية ضخمة ونام سيدنا ثانية الى قبيل تسميع درس بعد الظهر . وكنا في الساعة التي يقبل فيها كل أهل المدينة نستمر دون انقطاع في القراءة بصوت عال

وأخيراً حوالي الساعة الرابعة يرن صوت المؤذن لصلاة العصر وكان هـذا الاذان علامة الانصراف التي لاحظتها من زمن ، فنستعد للرواح ويرفع سيدنا مقرعته مؤذنا بالسكوت ثم ننشد بصوت عال :

اللهم ياسميع يامن لا ييأس من عونك السائلون انصر مولانا السلطان على الـكافرين ربنا تقبل دعاءنا يامن هو قادر على كل شيء :

ثم الثم يد الشيخ وأرجع الى البيت مع دليلي وأنا مهموم في الرواح كهمي في الغدو وما فتيء لغط الـكتاب يدوي في أذني فيغطي صوت نفسي . كنت أعلم أنه ينبغي على أن أقضي عامة النهار من طلوع الشمس الى غروبها وأنا سجين هذا الفقيه البارد المتعنت . وكانت الساعات والايام حتى التلامذة في نظره كالبسلة في سلة . وقد سئمت نفسي من وطأة حياة كريهة على وتيرة واحدة وكنت أشعر أنني كضغث من العشب الاخضر وقع من حمل بعير فتلوث بالاوحال وداسته الاقدام

وفي صبيحة يوم اردت ان يبرى العريف قلمي فلكمني بقبضة يده وكان سيدنا مستاء من سلوك هذا التلميذ فاشار الى عريفين بان يقبضا عليه ثم نزع بنفسه الفلقة المعلقة بالحائط وأمسك العريفان كل منهما برجل ليتمكن الشيخ من وضعهما في الفلقة ثم الهب سيدنا رجلي هذا المسكين بجريدة رفيعة فصاح هذا التعس :

عفوا ! عفوا ! بحياة النبي ! بربك !

كنت ارتعد واقشعر عند كل ضربة وكان صياحه يخترق جسمي، ولقـد ظهر لي سيدنا كالوحش الضاري وطفقت أتنفس بالم وامقت الـكتاب والدنيا والحياة

ثم رحل اهل منصور الى الاسكندرية وأدخلوا منصوراً في كتاب الشيخ خضر وكان ارق كتاب في الثغر ولكن هـذا الشيخ كان مثالا للقسوة البربرية والوحشية وكانت خاتمته سيئة إذ انهم بتزوير عقد ولما عرف انه سيقبض عليه فضل الانتحار والقى بنفسه في ترعة المحمودية فغرق

سئم منصور من الـكتاتيب فاشار عليه احـد اصدقائه من الموظفين بان يأخذه

الى باشكاتب احدى محاكم الاسكندرية الموظف بها واوصاه به خيراً فقبله ليقضي زمن التمرين الى أن تتاح له الفرص ويعينه كاتبا ومن الطف الفكاهات انهم ألزموا منصورا بان يحضر معه كرسيا من بيته ليجلس عليه فركب منصور حمارا وحمل له الحمار الكرسي وسار وراءه بعد ما رفض في أول الامر حمله وقال له ضعه أمامك على الحمار ثم وعده بزيادة درهم على أجره فقبل في نهاية الامر ... شاهد منصور صورة جهنمية في قلم المحضرين اذ رأى نساء مولولات من المساكين يستغثن بالمحضرين الذين حجزوا على ما بقى لهن من حطام الدنيا وبجانبهن العقبان والرخم وهم كتبة العرائض يسدون على المتقاضين المسالك ليمتصوا ما بقي من دمائهم ويسلبوا دراهمهم الاخير وبجانبهم باعة الاطعمة الحقيرة كالطعمية والخبز والسلطة والباذنجان يبيعون بضاعتهم للمتقاضين والموظفين والكل في هرج ومرج أشبه باسواق الريف.

قضى منصور بضعة أيام والقلق يساوره والكرب يغالبه فتوسل الى والده لينتشله من هذه البؤرة الممقوتة وفضل أن يلتحق في سلك طلبة المعاهد الدينية ليصبح أديباً شاعراً

ولما أصبح الصباح لبس منصور العمامة من جديد وارتدى جبته وقفطانه وطرح البذلة جانبا وأخذه والده الى الشيخ يوسف امام مسجد حيهم وأوصاه به خيراً وطلب منه أن يصطحبه الى مسجد أبي العباس المرسي ويقدمه الى أساتذته

كان الشيخ يوسف ضريراً ركب فيه اللؤم والخسة يتشدق في مجالس العامة ليوهم انه من كبار العلماء والشعراء المفلقين وكانت العامة تؤمه لينظم لهم تاريخ ميلاد أو تهنئة بزفاف أو غيرها وينقدونه بضعة دراهم وفي بعض الاحيان لا تتجاوز العشرين وكان يتعرف بالاسر ويتشدق عندهم بفكاهات محفوظة معدودة ليحظى بالغداء أو العشاء وكان يفضل ان يسامر نساء من يتعرف بهم ثم يسلقهم بالسنة حداد وقع منصور في مخالب هذا الذئب فاراد أن يستغل سذاجته فأوهمه بانه سيعلمه النحو والصرف وعلوم البلاغة والعروض فيصبح بعد قليل من الزمن أديبا شاعرا وأنه

سيسحب ذيل النسيان على زملائه من الطلبة . صدق منصورهذه الاوهام واستمثل له فجعل يسخره ليل نهار فى شراء الجبن والفجل والفول المدمس ولم يكتف بذلك بل ارجعه الى السوق في يوم مطير ليزيد له البائع ماباعه من الطعام . وكان يقوده من المسجد الى البيت والسوق

تعرف منصور في حلقة الدرس بشاب يدعى ابراهيم فقال له انك مغرور بهذا الشيخ وهو من الابالسة ولقد تعرف بنا وأضفناه وأكرمنا وفادته ولكنه أساء نا وسأريك ما أنا فاعل به

وبعد صلاة العصر نادى ابراهيم : لاتبرحوا مكانكم أيها المؤمنون. أيليق بالامام ان يذكر أحاديث الفسق والفجور أمام السيدات والبنات فاحمر الشيخ يوسف خجلا وثار قائلا : اخرجوا هذا الحشاش من المسجد

كان منصور تحدثه نفسه أن التعليم في معاهد الاسكندرية ليس رافياً كالازهر فطمحت نفسه الى الالتحاق به وحدث والده بذلك وصادف في هذه الانباء ورود خطاب من عمه مصطفى الى أبيه ينبئه بأن ابنه هرب الى الازهر والتحق به ويعرض على منصور أن يذهب الى الازهر على نفقته ليراقب ابن عمه . والى هنا انتهى الشطر الاول من حياة منصور وتعليمه الاولي وللكتاب جزء ثان تحت الطبع وسنعود اليه عند ظهوره ونخصص له بحثاً آخر

الكتاب صورة ناطقة للطبقة السفلى لم يترك كبيرة ولا صغيرة من طباعهم وعوائدهم وعاداتهم إلا حللها تحليلا دقيقاً بسيكولوجيا ولقد كتب باسلوب رشيق لايشوبه تكليف تزينه النكات والفكاهات وحوى من الوصف الدقيق مايكاد يجسم لك الحوادث والعادات والاشخاص ليسيرها أمام القارىء صوراً حية متحركة . فهو فى مجموعه عمل عظيم جليل بليغ . وما هو فى الحقيقة إلا تاريخ حياة الدكتور ضيف ومذكرات له عن صباه وأدوار تربيته وما مر عليها من التقلبات لقد سقطت على هذا الجمال النادر ثآليل شوهته ونفرت منه النفوس . تعرض

الاستاذ للدين فى كثير من المواضع بمناسبة وبغير مناسبة وطفق يتهكم على الشعائر الدينيـة

وان كانت الشعائر عند الاستاذ بدعة من البدع أو خرافة من الخرافات فلم لم يكتب لنا بحثاً عربياً يدون فيه نقده وملاحظاته على الدين وينشره بين قومه الذين انتقدهم . ما الفائدة العائدة من نشر هذا التهكم وتلك السخرية على الدين الاسلامي عند الفرنسيين . وأظن القارىء أن فكر معي قليـلا في هذه المعميات والطلاسم عرف أن الذي حدا الاستاذ الى هذا السلوك الشائن ليس إلا فكرة ترويج الـكتاب بنشر هذه الاسرار الدينية التى يتطلع اليها الاجانب وخصوصاً الفرنسيين ليتخذوها ملحاً وفـكاهات يهزأون بها فى مجالسهم . واني أحكم القراء بيني وبينه وأسرد لهم بعض جمل من الـكتاب بكل أمانة دون أن أغير شيئاً فى التعريب

قال فى صفحة ١٦ : ها هو الحاج قد نزل عن مقعده الخشبي (الدكة) وذهب ليأخذ حصيره المطوى بجوار الحائط و كان باليا تخرم في مواضع القدمين والـكعبين والجبهة . فرشه فى اتجاه القبلة بجانب البئر ثم نزع جلبابه واحتذى نعله الخشبي (القبقاب) فأصبح عاري الجذع والساقين ولم تستره غير سراويله ثم ذهب الى البئر وملأ منها الدلو ووضعه على الارض وطفق يغترف الماء بيديه ليتوضأ ويغسل وجهه وذراعيه وقدميه ثم يقف على حصيره والماء يقطر من أعضائه ويرفع يديه الى رأسه وهو ناظر أمامه دون انحراف كأنه ينظر شيئاً وراء الجدران التي تحد نظري وسمعته يقول : الله أكبر ! الله أكبر !

ثم يضع ذراعيه الى الامام ويده فوق الاخرى ويخفض رأسه غاضا الطرف ويتمتم بكلمات لا تفهم ويحمل حركات أخرى اعتدت عليها لان هذا المنظر يتكرر خمس مرات فى اليوم . فيركع تارة ممسكا بركبتيه ويسجد طوراً مستنداً الى يديه بينا يمس جبينه المتجعد الحصير . وانى أعلم انه فى هذه الآونة لا يتأتى لفت نظره

الى شيء ما اذ يصبح ما حوله كانه لا وجود له ولا يتسنى لاحد مقاطعته سواء أكان من أقاربه أو زائريه بل كان الكل ينتظرونه وهم سكوت بعيدون عنه الى أن يجلس على ركبتيه جلسته الاخيرة ويلتفت الى كتفيه اليمنى واليسرى مسلما على الملكين الحارسين

واظن انه لو كان أحد الاجانب الذين يدينون بغير الاسلام أراد أن يعتنق هذا الدين وقرأ صورة هذا المصلي لعافت نفسه هذا الدين ونفر من هذا الرجل المضحك القذر الذي يصلي وهو عريان لا تستره غير سراويله كانه (علي كاكا) يمثل فصوله المضحكة فى أقذر اركان سوق العصر

وقال فى صفحة ٦٦ — ولقد مرت فى مخيلتي بعض أخبار أبي كما يجرى الدم في شرايينى فتذكرت سيدنا جبريل الذي أملى القرآن على محمد (صلعم) والذى اصطحبه فى ليلة المعراج حينما اخترق النبي (صلعم) السموات حتى اقترب من القلم واللوح المحفوظ الذى أعلم أن حظى أنا الغلام الصغير مخطوط فيه كجميع من يحيطون بي وكان يخيل الي أني أرى الملك ميكائيل الذى يرفرف بجناحيه حينما يأمر السحب والرياح بان تبرق وترعد والملك اسرافيل وهو واقف بالمرصاد امام صوره وهو متهيء لينفخ فيه يوم القيامة ليقوض اركان العالم

ولقد طردت من خيالي بسرعة الصورة البشعة الملك الرابع من الملائكة المقربين وهو عزرائيل ملك الموت بان حدقت الى المركب الصغير المحفوف بالاسرار (هو المعلق على قبة الامام الشافعي لانه كان هناك وقتئذ) فتذكرت سفينة نوح وهي ماخرة تقل جميع الحياة فوق ماء هاجه غضب الخالق »

وقال فى صفحة ١٤٤ — :

وحينما تتلقى ملائكة السماء السابعة أوامر الله يبلغنها لجميع الملائكة فى جميع السموات الى أن تصل لسماء الارض فتتحدث الملائكة بما علموه فتظن الجن أن إرادة جديدة صدرت فيتسلقون فوق بعضهم الى أن يبلغوا السماء ليسترقوا السمع من الملائكة ثم يهبطون الى الارض ويذهبون الى السحرة ليفشوا لهم أسرار

الخالق ولهذا السبب يعلم السحرة أسرار المستقبل .ولمنعهم وردعهم عن هذه الاعمال سلط الله عليهم الشهب الثواقب تحرقهم وتهلكهم»

وقال فى صفحة ٢٣١ — :

— هاهو أستاذك في فقه أبي حنيفة قال ذلك همساً في أذني فاسرع اذن لسماع درسه

ظهر لي الشيخ لاول لحة ثقيلا إذ كان هرماً وكانت فكرتي الثابتة ان أتلقى علومي على اساتذة من الشبان وسأجلس مع المستمعين وكتابي بين يدي دون أن أنبس ببنت شفة . نظرت الى عينيه الكبيرتين اللتين لاتتحركان ولا تعبران عن شيء ولحيته الطويلة البيضاء وشاربيه المستأصلين وأنفه الكبير القذروعلبة سعوطه وهي في حجره فوق منديل مثقوب . . . وهذا هو النموذج الذي كنت أخشاه . وكان يتكلم وهو يهتز وكان شرحه ميكانيكياً . وفي كل ثلاث أو أربع دقائق يحشو أنفه بسعوطه ويمخط بجلبة قوية . . . وفي آخر الدرس أردت أن أسلم عليه فدلت هيأته على انه لا يراني ثم همس في أذني طالب انه ضرير»

ان هذا المنكود ليستحق الرحمة والحنان لسوء حظه وفقد بصره ، والاعجاب لانقطاعه لتلقي العلوم ونيله شهادة العالمية والقيام بمهمة التدريس فلم يسخر منه الاستاذ وبعيره بفقد بصره وضخامة أنفه وسعوطه ، والعاهات الطبيعية لا يتأنى تجنبها ؟ كما ان السعوط ليس مزريا لهذا الحدفقد كان الامبراطور نابوليون بونابرت وهو ابعد عظماء الرجال صيتا لا يفارقه سعوطه وما فتيء منتشرا في اركان المعمورة لاسيما أوربا . لنكتف بهذا القدر من أمثلة الكتاب ولو ان به كثيراً من هذا النوع ولنلق نظرة الى وضع الكتاب

تورط الكاتبان في وضع الكتاب وجعلاه على شكل أخبار متسلسلة بطلها منصور وطفق يحدثنا منذ كان صبيا الى أن ترعرع وأصبح فتى . وجدناه وهو صبي يحلل الاشخاص تحليلا بسيكولوجيا ويلاحظ ملاحظات دقيقة لا يراها الا الحكماء

ويصور تصويرا يقف دونه كبار المصورين من الكتاب

ولو كان عند أحدهما فكرة الوضع الروائى لما وقع الاثنان في هذه الورطة وكان للكاتبين الحرية التامة في تحليل الاشخاص وسرد الملاحظات والحكم وغيرها على لسان الكاتب مهما اختلفت أعمارهم

ومن المستغرب أيضاً انه قال في وسط حديثه وهو يصف كتاب الشيخ خضر حينما ادخلوا فيه امين افندي لتعليم الحساب .

وا أسفاه على الشيخ عبداللطيف فاني رأيت بعد خمس عشرة سنة من هذا التاريخ رجلا يقترب منى فى الطريق ثم قال لي : — يابك ! رعاك الله ! انظر الي بعين الرحمة واعطنى ثمن رغيف !

نظرت الى هذا الشحاذ فاذ هو أستاذي (في كتاب الشيخ خضر) فما الذي اضطره ليحدث عن شيء قبل أن يحصل بخمسة عشر عاماً ولم ينتظر حتى يأتي زمنه وموضعه من الحديث فيسرده ؟

ومن الاحاديث التي تفوق في الغرابة قصص الف ليلة خبر إحدى أميرات الاسكندرية التي اشترت فتاة تركية من الاستانة وكانت آية في الجمال وعند قدومها اصطف الخصيان والجواري السود على جانب السلم واصطفت في الجهة الاخرى الجركسيات الى آخر درجات السلم ولما مرت بينهم نثروا عليها الذهب ثم قادتها زينب هانم الى غرفتها وكانت من الحرير الوردي وسريرها من الفضة المموهة بالذهب وقد خصص لها معلمان أحدهما للفرنسية والثاني للموسيقى حتى فاقت سيدتها الاميرة

ومن المستغربات أيضا ان ابراهيم الذى تعرف به منصور في المسجد دعاه الى منزله لاول مرة وحينما دخلاه نادى ابراهيم أخته زكية وكانت في سن الزواج وعرفها بصديقه وقال هيئى له القهوة ثم الغداء . وفى الزورة الثانية لم يجد ابراهيم وفتحت له زكيه الباب وبمجرد دخوله احتضنته وقالت له قبلنى فخجل وقال لها دعيني فقالت له لا تخف فنحن وحدنا فعانقها منصور وقبل خديها وقالت له انى احبك وأريد أن اتزوج منك

وبعد حين سافر منصور الى مصر وبعد خمس سنين ذهب منصور الى الاسكندرية وزار صديقه ابراهيم وزكيه وكانت وحدها في البيت فعانقته كعادتها وجلست على ركبتيه واخبرته انها تزوجت من رجل وما لبثت معه إلا قليلا وطلقت فسألها عن السبب فاجابت إني رأيته اجمل مني ولا ارغب ان اعيش مع امرأة وإني ما زلت احبك وأريد ان اتزوج منك فقال لها اني طالب فقير فقالت له خذ هذه الخمسين ديناراً وقدمها الى أخي مهراً وبعد قليل اقبل أخوها وتردد منصور في الطلب وأشارت اليه زكيه خفية من الغرفة الاخرى ليخطبها من أخيها فتردد وانصرف دون ان يفاتحه وانتهى الجزء الاول على هذا

هذا الخبر من أوله الى آخره خيالي لايقبله العقل اذ كيف يعقل أن فتاة بكراً تهجم على فتى وتنهشه عناقاً وتقبيلا بمجرد المقابلة الثانية مع أن الخليلة بها بعض من الحياء يجعلها متهيبة من عشيقها الجديد زمناً ما الى أن تتواتر المعاشرة ومن وجهة أخرى ترى منصورا شديد السمرة فقيرا لا يملك شيئاً مع أن زكية تملك بيتاً كبيراً وحقولا كما أن سبب الطلاق غير معقول واذا كان لكونه أجمل منها فلماذا قبلته زوجاً ؟ وانها لابد أن رأته مرة أو مرات ولو من خلال النافذة حينما كان يزور أخاها وربما جالسته كما جالست منصور قبله

وان هذا الموقف الذي ختم به الجزء الاول لشائن مزر لانه قبض المهر من الفتاة وانصرف دون أن يفاتح أخاها وكان من حسن الذوق أن يفاتحه قبل انصرافه حتى لايثير الظنون ضد منصور بهذا الموقف الردىء وسنعود ان شاء الله لاتمام البحث عند ما يظهر الجزء الثاني

كيف تصورنا شاعرة فرنسية

قد تحتمل النفوس ما ينفثه الجاهلون من سم التعصب الذميم وما توحيه اليهم عقولهم الصغيرة من تهكم قارص وبذاءة جارحة فتمر عليها مر الكرام وتناجي انفسنا بكلمة واحدة لا يلبث أن يفوه بها اللسان بنغمه أشفاق على هؤلاء المساكين وهي « شفاهم الله »

ولكننا نحار في مفاوز التيه حينما نرى تلكم السخافات والترهات صادرة من احدى الشهيرات من كاتبات وشاعرات فرنسا الا وهي (مدام لوسي دولارو ماردروس) والادهى من ذلك انها القت محاضرتها التي تسخر فيها من المصريين بل من جميع اهل الشرق في ١٧ مارس الماضي ونشرت بمجلة محاضرات جامعة (ليزانال) في اول اغسطس سنة ١٩٢٣ وهذه الجامعة خاصة بالبنات بباريس وتلقى فيها محاضرات من آن لآخر يحضرها كثير من الكتاب والشعراء وأعضاء المجمع العلمي وغيرهم من اهل الادب ومريديه وكان التصفيق والضحك يدويان في أركان المكان عقب كل جملة مما يدل على الاعجاب بهذا الخلط الممقوت والتعصب الفاضح . لم يكفها ذلك بل انتقلت الى اللغة العربية وقالت بانها نشأت من تقليد الابل والخيل والضأن والكلاب والاسود

والاعجب من هذا أن زوجها المصري مولدا والمعجب بآداب العربية والذي ساح في أغلب البلاد الشرقية التي تنطق بالضاد وعرج على الهند لجمع نفائس الكتب القديمة المخطوطة ومن ترجم الف ليلة وليله والقرآن وملكة سبأ ترجمة سحبت ذيل النسيان على جميع التراجم قديمها وحديثها لم يراجع زوجه في شيء من هذه الخرافات فكأن مصر الذي ولد وتربى فيها هو وابوه وعمه وباقي اسرته التي قضت قرنا تقريبا في مصر وما فتئوا ينعمون بنيلها العذب وشمسها المتألقه وبركاتها الوافرة لم يكن لها عنده ذمام ولا عهد ولا واجب ولا وفاء ولا حب لوطن ولا للغة فتن بها وقضى عمره في ترجمة شيء عظيم من معجزاتها الى الفرنسية

انني كنت أعجب بهذه الشاعرة هي وزوجها وقد قرأت مقتطفات من شعرها واحدى رواياتها القصصية المسماه(l'Ex-Voto) أي (النذر) وهي من ابدع ما كتب في نوعها إذ تمثل حياة اهل (هونفلور) مسقط رأس شاعرتنا وهي واقعة في مصب نهر السين وغالب اهلها صيادو اسماك تمثيلا شائقاً . وبطلة الرواية تدعي (لوديفين بوكاي) وهي ابنة صياد سكير عربيد لايقوم بحاجيات بيته فكانت هذه الفتاة التي مضت طفولتها في التشرد في الطرق او الهرولة وراء طير أو لتسلق الاسوار لسرقة فاكهة دانية أعظم مؤدب لوالدها السكير بل لجميع أهل البيت الذي أصبحت مديرته وقد لعبت أدوارها الشيطانية حينما أجبرها أبوها بان تتزوج من رجل غني صاحب قهوة وسفن لانه كان ينفق على أسرتها بكرم حاتمي وكانوا في فقر مدقع فاظهرت القبول وأصرت أن تتخلص منه ولو قبل الزفاف لانها كانت تحب فتى يتيما تربى معها في بيت أبيها ولم تظهر له قط الحب بل كانت دائماً تتهكم عليه بقارص النكات ولا تخاطبه إلا بلهجة الآمر الناهي وكانت مسيطرة عليه كباقي أفراد الاسرة وانتهى الامر بان تزوجت منه وتخلصت من الاول قبيل الزفاف . وانها لرواية ذات مغزى عظيم تمثل قوة الارادة والذكاء وحسن التدبير لفتاة تربت في الطرق ولم تتعلم إلا شيئاً يسيراً في طفولتها الاولى وكان مهذبها الفقر وسوء الحال أو بعبارة أخرى : «الزمن»

ولشاعرتنا دواوين باسماء مختلفة وسبع عشرة رواية قصصيه وقد ظهر اول ديوان لها سنة ١٩٠١ بعنوان (الغرب) وكانت حينذاك في ربيعها العشرين لانها ولدت سنة ١٨٨١

أما زوجها فهو أرمني الجنس واستوطن أسلافه في حلب حتى نسوا لغتهم الاصلية واصبحوا لايتكلمون الا العربية والفرنسية التي تعلموها في المدارس وانتقل والده الى مصر هو وأخوه منذ قرن تقريبا وكان والده وكيلا لشريف مكة السابق عون الرفيق بمصر ورزق ثلاثاً من الاولاد الذكور اكبرهم زميلنا وصديقنا جان

أفندي ماردروس الذي كان مترجما بمحكمة مصر المختلطة وأحيل الى المعاش منذ ثمانية اعوام وهـو لطيف المعشر متواضع والثاني زوج الشاعرة والثالث طبيب ببور سعيد . وقد ولد الاديب بمصر سنة ١٨٦٨ ثم سافر الى باريس لدراسة الطب ونال لقب (دكتور) بعد ان قدم رسالة بعنوان (بحث في ضيق مجرى البول) سنة ١٨٩٤ ومن هذا الحين انقطع الى الادب وساح في اغلب بلاد الشرق ومن غريب اطواره أنه قاطع اخاه الاكبر منذ عشرين سنة أو اكثر لانه اعترض على تغيير لقبه وحذف حرف الـO من Mardrous

ذهب اعجابي واحترامي لهذين الزوجين حينما قرأت هذه المحاضرة التي يغر عنوانها وهو (الموسيقى الشرقية) والحقيقة أنها لاتنطوي إلا على سخافات ممقوتة وتعصب مرذول وليس فيها شيء عن الموسيقى وها هي بنصها وفصها :

الموسيقى الشرقية

سيداتي وآنساتي وسادتي

ها أنا ذي أقف أمامكم لاحدثكم عن الموسيقى الشرقية وسأتكلم عنها حالا . أما الشرق الذي أعرفه فهي البلاد الشرقية التي يحتضنها البحر الابيض المتوسط وهي الجزائر وتونس ومراكش ومصر والشام وفلسطين وتركية أوربا والاناضول وسأترك الـكلام عن اللغة التركية المدهشة وما هي إلا أنغام موسيقية لاسيما حين تسمعونها من أفواه النساء

اني افتتحت قولي بان العربي موسيقي لانى افـكر في الوزن وهو نصف الموسيقى على ماأظن

ان الذين سمعوا المراكشيين او الجزائريين وهم يتكلمون ليقولون ذلك وهم يأسفون ان لغتهم قبل كل شيء حلقية ولهم الحق فى ذلك . وان كلامهم لايخلو من الوزن الذي هو روح الشرق

وسأحدثكم عن منشأ اللغة العربية تخمينا واحتمالا ولكني أبتديء القول بأن العربية التي تظهر للاذان أنها تختلف حسب البلاد ماهي إلا واحدة في الكتابة

ان النطق العربي لاقرب الى الوحشية والرطانة فالمصري لايفهم النطق المراكشي ولكن لايصدق العكس فان المراكشي يفهم النطق المصري من أول وهلة بل ويعجب به . وكلما اتجه الانسان الى الغرب أي كلما ابتعد عن مكة لاحظ أن العربيه تفقد نقاءها وذلك راجع الى طرق النطق . وفي مراكش أو بلاد الغرب تجد أن اللغة عندهم كلها سواكن بدون متحركات وبالعكس في بلاد العرب فانها تقرب من اللغة الفصحى التي تنتهي بمقاطعها الغنائية والقرآن هو أعظم مثال لها

ولا مراء في أن البلاد التى يسود فيها الغناء في كلامها هي مصر وأهلها كسالى فتراهم بعكس المراكشيين يحذفون السواكن الجامدة ليطيلوا مد المتحركات

أما أصل العربية فهو على ماأظن (ولا أقول ذلك بقصد أن أضحككم) ناشيء عن تقليد الابل والخيل والشاء والكلاب والاسود . فترى زئير الاسد ظاهراً في غضب العربي ويعرف ذلك الذين سمعوا العرب وهم يتشاتمون

وحرف العين واضح في هدير البعير وهو صعب النطق على الحلق الافرنجي وحرف القاف يمثل سعال الخيل ولا يتسنى للاوروبيين أن يلفظوه

والصاد والضاد كثغاء النعاج والواو في نباح الكلاب . أما الحاء والخاء فيمثلان تنخم السباع الهائجة في الصحراء (ضحك وتصفيق)

لقد حدثتكم بأن مصر أكثر البلاد غناء في كلامها لان المصريين استطاعوا أن يجعلوا من هذه اللغة الخشنة كلاماً تسود عليه نغمة الحزن والشكوى متقطعاً بسبب الاغراق في اطالة المتحركات وحذف بعض الحروف الجامدة . ولذلك استبدلوا حرف القاف المزعجة بسكون وهذا السكون هو الذي يكسب غناء ضفاف النيل شكلا ممتازاً . وفي مصر لايقولون (قلبي) بل (البي) ولا يقولون (قومي) بل (أومي) ولا يقولون (القمر) بل (الامر) . أما المتحركات فيحسن أن تصغوا الى

النساء وهن يتحدثن في خدورهن بمصر :

بتعمل ايه — تعالي هنا يابت — أنا حبيبك يا عيني

أما الغضب الذي حدثتكم عنه فاؤكد لكم ان اللغة العربية وحدها بمالها من الوزن والموسيقى قادرة على تلطيفه وتيقنوا ان الانسان يهدأ ثائره حينما يقول للاخر « ينعل دينك يامعرص ياعكروت وينعل أبوك وأمك وأختك يا ابن تلتمية وخمسين خنزير وانشالله تموت بالموت الاحمر ضحك »

وأؤمل أن تكونوا سمعتم الوزن في هذه الجمل الهادئة أو القوية. وقد نوهت لكم ان الوزن هو الاصل المشترك في الموسيقي والشعر وا كرر لكم ان كل الشرق وزن. ولا حاجة بنا لان نشط كثيراً يا آنساتي فان عندكن فكرة ضئيلة من (الجازبند) وهي من اختراع الزنوج والتي ترقصن على نغماتها هذه (الهامبولا) التى تسمي هنا (فوكس ثروت) و (شمي) وغيرها . وأظنكم لا تشكون قط فى انكم مهما حاولتم ومهما تلقيتم من دروس الدنيا فانكم لا تستطيعون ان تقلدوا ولو عن بعد الرشاقة الوحشية فى أنواع هذا الرقص الافريقى

أن الشرقيين لا يعدون خطواتهم ولكنكم تعدونها أيها السادة الراقصون والراقصات ومهما حاولتم فانكم لا تصلون أن تكونوا زنوجاً (ضحك عام)

ولنعد الى العرب فنقول أن الوزن عندهم من الضروريات كالتنفس والمرأة التى تندب ولدها تبكيه باوزان وانغام كما حققته فى رحلى وأسفارى

وأظن أنه قد سبق لي أن حدثتكم فى نفس هذا المكان عن البدوية التى صادفتها فى طريق فقر فى (خروميرى) ولم تدراني أنظر اليها وهي مارة وكانت تتقدم في رياح الخريف بين أوراق الخريف المتناثرة وعصاها بيدها وهي تقطع ألحان الشكوى التي كانت تبتكرها وهي سائرة يخنقها البكاء والتنهدات وحينما استعلمت عنها قيل لي انها تقطع وحدها أوزان الالام لانها شاهدت المحضر الافرنجي وهو يبيع أمتعتها الحقيرة

وقد رأيت في مصر نساء مسلمات مستخدمات في محلات افرنجية يسرن في الطريق حاملات آلات خياطة ليمشين بين قطارات الترام والسيارات والسابلة من الافرنج ولا ينقلن قدما أمام الاخرى دون أن يغنين لحناً يساعدهن على نفض كسلهن الطبيعي

وقد تحققت عند ما كنت بالاقصر اضطرار المصريين الى اسناد أعمالهم الى الاغاني المقطعة اذ رأيت رجالا وغلمانا يرفعون الاحجار عن هياكل أسلافهم ولا يجودون باي مجهود الا اذا اسندوه الى لحن يغنونه جميعاً

وقد فاجأت في مقبرة اسلامية بالصعيد جمعا محتشدا من العمال المسافرين الى السودان ينشدون ويرقصون بنظام كالرقص الروسي ليتشجعوا على ملاقاة النفي البعيد

وكان يتشجع مثل هؤلاء العمال الموكلين بوضع قضبان الترام في القاهرة إذ كانوا يرفعون معاولهم مع بعضهم ويتركونها تهوي مع بعضها الى الارض لتضرب نقرة واحدة تسير مع وزن اللحن المنشود من الجميع. وليس المسلمون وحدهم هم الذين يعملون هذه الاعمال وقد شاهدت منظراً مماثلا بمقبرة المسيحيين في الاسكندرية في عيد الاموات

رأيت سيدة مصرية عجوزاً مرتدية ملابس تماثل أزياء عجائزنا من قماش أسود دقيق من نوع (الكابوت) وكانت تتعهد نباتات زرعت حول قبر ابنتها ولما نظمت المكان نشرت مظلتها لان شمس مصر قوية حتى في شهر نوفمبر. ثم جلست بجانب القبر وأخذت تنتحب وتعوى كذئبة تبكي ابنتها بوزن موسيقى أوحاه اليها الهامها

ويوجد بمصر خلاف هذه المظاهرات الشخصية حفلة دينية تسمى الذكر وهو يتم بانواع الاجتماعات تشريفا للموتى أوالاولياء أو لتمجيد الله وهو يختلف على حسب الطرق ويتكون من ترتيل يزداد شيئاً فشيئاً الى ان يبلغ الصراخ ويرقصون سوياً في بعض الاحيان . والذكر يكون مزعجا حينما تشتد وتعلو أصوات الذاكرين

واظنكم سمعتم أخبار (العيسويين) (نسبة الى محمد بن عيسى وهو مرابط مراكشي أسس هذه الطريقة بمكناس وقد مضي عليه ثلاثة قرون وانتشرت طريقته في جميع بلاد الغرب وهم يدعون أن الافاعي والسلاح والمسامير والزجاج لا تؤثر فى أجسامهم وهم يماثلون المشعوذين المصريين المعروفين بالرفاعية في افريقيه الشمالية الذين يسمرون المسامير في خدودهم وقت بحرانهم ويقلعون أعينهم من محاجرها ويطرحونها أرضاً حتى يسمع صوت وقعها وفي الصباح لا يرى أي أثر من ذلك فى وجوههم وقد شاهدت مايماثل ذلك فى الغرابة بمصر بلد الاعتدال الباسم

ولقد حضرت الستة عشر يوماً باجمعها التي يقام فيها مولد النبي (صلعم) بسراي السيد توفيق البكري نقيب الاشراف وشاهدت المرتلين الراقصين والذاكرين في ضوء المشاعل تخفق فوق رؤوسهم أعلام موشاة بابدع الالوان

وأذكر خاصة حزب الزنوج ذى الجلابيب والعمم الزرقاء الفيروزية يذكرون ويرقصون وهم مصطفون حتى يهيجوا وتعلو أصواتهم لحد الجنون المزبد وكان هناك حزب آخر من الشبان المصريين الشاحبي اللون يرمون بانفسهم في النار على صوت الدفوف ويأكلون القبس ثم يتمرغون على الصعيد بحالة صرع فيحنو عليهم رفاقهم ويواسونهم بأقوال حكيمة . وبعد قليل يأتى دور الآخرين من اشتداد قرع الدفوف ويرتمون مثلهم في النار ثم يصرعون ويتخبطون على الارض ورؤالتهم تسيل من افواههم وهم حمر العيون

وقد تبعت العجم في عيدهم المسمي عاشوراء وقد مر موكبهم في طرق القاهرة ليلاوهم لابسون أثوابا بيضاء ووراءهم سيدات يبكين وكان وزنهم الوحشي مستنداً الى ضربات السيوف ذات الحدين في رؤوسهم وكل منشد منهم يضرب نفسه ليظهر الوحدة الموسيقية

وكانت اصوات هـذه الجموع تولول صائحة حسين ! ..! على !... ولكل اسم من هذين الاسمين المقدسين يقطع السيوف في جماجمهم الدامية

وقد تمكنت بفضل زوجي الذى يملك المفتاح الذهبي للاسرار الشرقية أن أتسلل وراء هؤلاء المتعصبين وأتبعهم الى مسجدهم الصغير الذى يقيمون فيه حفلتهم والذى لم تطأه قط أقدام الافرنج

اصطف هؤلاء المنشدون الجرحى حول شيخهم وهـو مرتد طيلسانا أبيض فضفاضا شعره مسترسل على كتفيه برأس يشبه رأس المسيح أسمر الوجـه تدور عيناه في أم رأسه وهو يرتل لهم بصوت جهورى. وليسند الى كل جملة كان أتباعه ذوو الرؤوس الدامية عارين الى اوساطهم وبايديهم سلاسل يضربون بها ظهورهم متبعين في ضرباتهم الوزن الموسيقي

ولقد دفعنا تطلعنا الى زيارة بعض هؤلاء المتعصبين المرعبين فذهبنا اليهم في الغد الى سوق العجم (خان الخليل) فوجدتهم من صغار التجار الذين يبيعون نعال المنازل والبضائع الحقيرة وهم جالسون بكل لطف في حوانيتهم يعرضون سلعهم بصوت هادىء

فسألناهم عما فعلوا أمس فكشفوا رءوسهم المغطاة بقلانس (استراخان) وأرونا جراحهم المكدمة بتفل القهوة وقالوا لنا وهم يأسفون ستزول هذه الآثار غـداً ولم يبق عندهم شيء من المس الشيطاني الذى أصابهم أمس . وغاية الامر أنهم يعرفون أنهم يصابون في كل عام في نفس هذا التاريخ بتلك النوبة التى تملكهم دون أن يستطيعوا الفرار منها

النوبة العصبية هي الكلمه الملائمة . وكل شيء في الشرق نوبة عصبية صاعقة لا يمكن التنبؤ بما سيحصل قبلها ولا كشف اسرار ما سيقع بعدها

وكل ما سردناه في الحقيقة هو من تأثير الوزن (تصفيق)

ولا أريد أن أتوغل في الجنون الديني الذى حدثتكم عنه بل أكتفى بسرد الحادثة الاتية التى شاهدتها في تونس وهي غريبة في نوعها :

كانت طفلة زنجية تسمى (زهرة) لم تبلغ بعد السادسة وقد ذاع صيتها في حيها لمهارتها في رقص البطن . فقلت لمن حولها من شبان العرب ادعوها للرقص فلم تقبل الرجاء وطفقت تقضم فى قطعة من الخبز محشوة بالحلوى الطحينية وتتفرس في بعين بيضا. ملئت خبثاً . ولن أنسى شكلها وهي مرتدية سروالها الضيق الطويل و (الفوطة) المخططة التى ائزرت بها ورأسها المربوط بمنديلها المفوف

رجوا منها أن ترقص فماندت فقعد الجميع القرفصاء وضربوا بدائرة حولها وجعلوا ينقرون دفوفهم ويغنون لها . سجنت زهرة وسط الحلقة فبكت من الغيظ وأخذت ترقص رغماً عنها وبدون ارادة منها . كانت تقضم الخبز من الحردوتريها بدمعها وطفق روقاها الصغيران يتموجان من تأثير الموسيقى

وما تلك بحالة خاصة فاننا اذا ولجنا الدائرة الصوفية المحضة (للمولويه) فانى أقص عليكم باننى رأيت الشيخ (صلاح الدين دده) يرقص ويدور لانه سمع أحد الجالسين معه فى بهو اسلامي يعزف على (الفيولونسيل)

وقد قال هؤلاء الدراويش : « كل من لا يرقص فهو مجرد من الروح » ولهم الحق فان رقصهم الذي يشبه دوران الكواكب لهو أكمل مظهر للنشوة الدينيةالتي تليق مشاهدتها والموسيقى التى تحمسهم مركبة من نايات وطبول صغيرة وعيدان ويخيل الى سامعها انها آتية من وراء البحار

وان أردنا أن نتكلم على الموسيقى الحقيقية فسأحدثكم عن المغنين والمغنيات و (تختهم) الذى يشمل الناى والطار والدربكة والعود والكمنجة والقانون

وسأجرب أن أقفكم على فكرة ضئيلة من الاوزان النائمةفيهذا الجلدالمشدود (للطار) وقد أحضرت واحداً لهذا السبب وستطلعون على السلم الموسيقي الحقيقي لهذه الآلة وهذه التي تشاهدونها جلبتها من دمشق (ثم أنشأت مدام ماردروس تنقر أوزاناً مختلفة شائقة على الطار فصفق لها الحاضرون تصفيقاً شديداً)

ولقد حدثتكم كثيراً عن الست وسيلة (وهي العوادة الشهيرة التي كانت عند

المرحومة الاميرة نازلي فاضل ثم انتقلت بعد وفاتها الى سراى المرحوم السلطان حسين كامل) والست بمبه (هي بمبه كشر العالمة الشهيرة) وهما المفضلتان في مقاصير الخدور الكبيرة بالقاهرة وتونس واني أقص عليكم الاهواء الغريبة للمغنين العرب

ان الشيخ يوسف (الذى توفي الآن ومن تعرفت به بمصر) رجى منه مرة أن يغني في احتفال عند كبير من الامراء . وان كلمة رجاء منه لمخففة لانه نقد مقدماً أجره الذي يقدر بآلاف من الفرنكات وفي أعظم وقت الاحتفال اختفى الشيخ يوسف فأخذوا يبحثون عنه فعلموا أنه قد غادر القصر وكان له عدة بيوت فأرسلوا اليها من يبحثون عنه فلم يعثروا عليه . ومضى وقت طويل والامير ومدعووه ينتظرون وانتهت الليلة باكتشافه في إحدى الطرق الصغيرة فى مصر القديمة يسير وحده بغير قصد في ضوء القمر فاجاب الرسول بانه لايستطيع العودة الى القصر لانه لاميل له الليلة للغناء ولا للموسيقى فخضعوا لرغبته . وان كبار المغنين فى بلادنا لايجرؤون أن يعملوا مثلهم

وفى حفلة زفاف ابن أحد التجار (وكانت الحفلة فى الطريق كما جرت العادة في القاهرة) رأيت عبد الحي المغني الآخر الشهير وقد أخذ مبلغاً ضخماً وكان تحت قدميه ثلثماية مستمع تقريباً ينتظرونه من ساعات وكان جالساً على مقعد عال وبيده عود وقد وقع نحو عشرين مرة فاتحة موسيقية ثم وضعه بجانبه ولم يغن كلمة واحدة . ولم أر فى حياتي مثل هذه الالاعيب المماثلة لسنور يعذب فأرة قبل افتراسها(ضحك)

ومن أغرب الامور التى نفاجأ بها أن في البلاد العربية كل الناس بدون استثناء مفتونون بالموسيقى وهى عند العرب قوة قاهرة ويمكن سوقهم الى الحرب المقدسة بعود ورق وصوت جميل . واني أريد أن أقص عليكم المشاهدة الآتية

توجد بمصر شركة من السوريين المسيحيين تمثل بالعربية وبأزياء أفرنجية روايات أوربية أمام جمهور عربى صميم وبعض هذه الروايات من مؤلفات (شكسبير) ولقد حضرت منها تمثيل (رميو وجوليت) وكانت الطرابيش والعمم

تشغل المقاعد كلها والالواج ولا تظنوا أن هذا الجمهور من المسلمين كانوا ينظرون الى المسرح بل كانوا يدخنون ويشربون والجميع ناظر الى السقف أو الي أرجلهم أو ينظرون وراءهم بأعين كبيرة وهم يفكرون في أمور أخرى

وفي وقت من الاوقات أراد الراهب أن يغمد خنجر (روميو) فى قرابه لانه كان يريد أن ينتحر فوقع من يده الخنجر فرفعه الراهب فوقع ثانية فرفعه روميو

وقد حاول الاثنان أن يغمداه فى قرابه فلم يستطيعا وبعد عشر دقائق خرجت بغتة من وراء المسرح عجوز لاشأن لها فى الرواية وطفقت تعالج الخنجر بصبر ولسانها متدل حتى وفقت أخيراً ووضعته فى منطقة (روميو) ثم خرجت بكل سكون كما دخلت وعادوا الى التمثيل بعد ماقطع فاغرقت فى القهقهة وحدي دون أن يشاركنى أحد من هذه الجموع

وعد ماجاء منظر القبر انطلق الضحك من الجميع ليحيوا أنين (جولييت) . وفى مواقف الحب كان الممثل السورى يستبدل شعر (شكسبير) الوجداني بالغناء العربي وقد هاج الجمهور من التحمس والفرح اذ عرفوا منها روح جنسهم فوجدوا أنفسهم سعداء (نريد الحب العذرى عند العرب)

كل شرقى يحب الموسيقى حتى خيلهم وقد شاهدت فى (خرومرى) برذونا بلغ من الكبر عتيا يجر عربة وهو كئيب كانه محتضر وكان فى زمن فتوته من خيول البرجاس المشهورة وبمجرد مايسمع أحداً يصفر له لحناً يرقص طرباً

كل شيء في الشرق موسيقي من نداء الباعة الى أذان الصلاة يسمع المؤذن من أعلى منارته خمس مرات كل يوم فينطلق غناؤه بدلا عن نواقيسنا. وسأجتهد أن أسمعكم غناء المؤذن (ثم أخذت مدام ماردروس تغني غناء المؤذن فاحتد التصفيق وعلا الصياح : أعيدي أعيدي)

أراكم تستغربون هذا مع أن غناءنا نشأ من الغناء العربي السوري وها كم الكلمات الاولى من القرآن كما يرتلونها هناك . وأظنكم تلاحظون فيها نغمة

صلواتنا الكاثوليكية (ثم طفقت تغني : بسم الله الرحمن الرحيم)»

اننا في الوقت الحاضر لانكتفي بان نفكر في أن غناء أسلافنا أتى من الشرق البعيد . ان موسيقانا العصرية بدافع التأثر الذى حصل (لكلود دوبوسي) قد سارت الى أسيا لتبحث عن نغمات جديدة

ولقد قال لي (دوبوسي) بانه فضلا عن التأثير المباشر الذي نفحته به الروس أبناء المغول فانه وجد فى الموسيقى التي كانت ترقص عليها الفتيات الجاويات في معرض ١٨٨٩ كنزاً مدهشاً من النفحات الجديدة

كلمتنا على المحاضرة

تنحصر محاضرة الكاتبة في التهكم اللاذع على أهل مصر والشرق وبعض افتراآت سندحضها بالدليل القاطع والتشنيع باللغة العربية وانها لغة غنائيةوفي تصوير بعض البدع المرذولة المتفشية بين بعض العوام وسلوك مغنينا

عيرت الامة المصرية جمعاء بعادات شاذة لا تتعدى فئة صغيرة من الطبقات السفلى والغوغاء السوقة وضل طرفها عن المدنية المصرية واخلاق المصريين وكرمهم وتسامحهم ونهضتهم الادبية والسياسية التي اسمعت الخافقين ودوت بين المشرقين

أمت هذه الكاتبة ديارنا منذ ٢٢ سنة تقريباً ومن خجلها لم تذكر فى أي موضع من محاضرتها تاريخ رحلتها لانه من المضحكات ان يحدث المحاضر عن قوم شاهدهم قبل ٢٢ سنة . ولقد دققت البحث عن هذا التاريخ حتى عثرت عليه من عدة مصادر . ومما يؤيد ذلك ان السيد توفيق البكري الذي شاهدت عنده مولد النبي (صلعم) مضى عليه نحو ٢٠ سنة وهو مريض ومقيم فى الشام

تعرفت بكثير من الامراء والاعيان مثل ساكنة الجنان الاميرة نازلى فاضل

والسيد توفيق البكرى وكثير غيرهما فاكرموا وفادتها فلم تنظر عند هـذه الطبقة الراقية حسنة واحدة أو مثالا للنهضة والرقى

وأول مارمتنا به أننا قوم كسالى وهذا وهم أو افتراء لان الكسلان لايستطيع أن يعيش أو يكسب قوته ولا ننكر أن عندنا بعض شواذ كباقى الامم . وان نظرنا الى الطبقة السفلى عندنا والعمال رأيناهم متقنين لصناعاتهم من نجارة وحدادة ونقش وحياكة وغيرها وقد استعانت فرنسا نفسها بآلاف من عمالنا وأعجبت بمهارتهم . وغالب العمال في بحبوحة من العيش يلبسون الجلاليب الحرير والمعاطف والاحذية والطرابيش الجميلة وكثير منهم يعرف مبادىء القراءة والكتابة وبعضهم من الذين يشتغلون مع رئيس أجنبي يتكلمون بلغة رئيسهم بعد سنة واحدة

قضت الكاتبة ردحاً من الزمن بين تونس والجزائر ومراكش وتعودت لهجة المغاربة الذين يسكنون كل حرف ويحذفون كل متحرك فظهر لها ان المصريين فى لهجتهم يطيلون مد المتحركات حتى اصبح كلامهم غناء

ثم انتقلت الى اللغة دون ان تدري منها شيئاً أو تطالع ما كتبه المستشرقون عنها من غالب الافرنج وأولهم الفرنسيون مثل (رينان وسيلفستر دوساسى وهوبار) وغيرهم من الاعجاب بالعربية وفصاحتها وبلاغتها ولا شك انها لم تدر من ذلك شيئا حتى قالت انها تقليد للابل والخيل والشاء والكلاب والاسود . وهذا الكلام أشبه ببحران محموم أو خلط مصروع . ومن الغريب انها قالت ان الصاد والضاد موجودتان في ثغاء النعاج والحال ان الطفل عندنا حينما يبلغ الثالثة يقلد اصوات الحيوانات ويقول : « ماء » حاكياً صوت الشاة وليس فى هذا الصوت صاد ولا ضاد فالكاتبة اذن اقل من الطفل فهماً

وقالت ان القاف المزعجة التى تشبه سعال الخيل لا يتأتى للحلق الافرنجي ان ينطق بها وهذا افتراء ايضاً لان مالطة التي هي جزيرة افرنجية يتكلم أهلها بقاف اضخم من قافنا وعندهم العين والحاء والخاء التي قالت عن اولاها انها

مأخوذة من هدير البعير وعن الاخيرتين انهما من تنخم السباع الهائجة في الصحراء والخاء ايضاً موجودة في اللغات الالمانية والنمسوية والاسبانية

بنت الكاتبة على توهمها ان المصريين يطيلون من المتحركات انهم يتكلمون بالغناء وأن كلامهم موزون ملحن وعلى هذا الوهم انشأت محاضرتها واستنتجت ان جميع الشرق وزن وان هذا الوزن يضطرهم كالقضاء المحتوم الى اقتراف أعمال التوحش من أكل النار والزجاج والوقوف على اللهيب عند المصريين وضرب الجباه بالسيوف والظهور بالسلاسل عند العجم

رأت خادمة أو فقيرة تحمل على رأسها آلة خياطة لتصلحها أو توصلها الى منزلها فتوهمت أنها مستخدمة لكثير من أمثالها فى المحلات الافرنجية وموكلة بتوزيع هذه الآلات وهذا لا وجود له عندنا بالمرة

وقالت انها رأت في مقبرة المسيحيين بالاسكندرية عجوزاً مصرية في زي العجائز في بلادها وبرأسها قبعة من نوع (الكابوت) وهذا وهم فاسد لانه لا توجد بمصر مسيحيات مصريات غير الاقباط وهن لا يلبسن القبعات ويستثنى عندهن التلميذات فلا بد ان تكون هذه السيدة سورية مسيحية ومن آداب الكاتبة أنها شبهت هذه السيدة التى تبكي ابنتها بالذئاب العاوية

ثم انتقلت الى الذكر وقالت عنه انه مزعج وفي الحقيقة انه يزعجنا أكثر منها وما هو الا بدعة دينية لا تتعدى الرعاع والبسطاء من القرويين وان الدين ليبرأ من هذه العادات الممقوتة التى ابتدعها هؤلاء الرعاع

أما الشعوذة التى يعملونها في الذكر فما هي الا أعمال سيماوية ويازرجية يتعلمها بعضهم عن بعض ليراؤا بها ويظهروا بمظهر التقوى والكرامات فتقبل أيديهم وتنهال عليهم من أمثالهم صنوف البر والخير ويعدونهم من الاولياء أصحاب الكرامات

كما ان حفلة عاشوراء بدعة من عوام العجم وقد حققت ذلك الكاتبة حينما

زارتهم في صباح الحفلة بخان الخليلي فوجدتهم من فقراء التجار الذين يتجرون بالسلع الحقيرة

ثم قالت الكاتبة : « النوبة العصبية هي الكلمة الملائمة . وكل شيء في الشرق نوبة عصبية صاعقة لا يمكن التنبؤ بما سيحصل قبلها ولا كشف أسرار ما سيقع بعدها » فلو كان عند الكاتبة شيء من التفكير والتروي وصدق الحكم لما حكمت على جميع الشرقيين بهذا الحكم القاسي المضحك . وهل تؤخذ أمم عديدة بجريرة شاذة يقترفها بعض السفلة

ثم سردت لنا نادرة للشيخ يوسف المنيلاوى تماثل نوادر عبد الحي مع اننا لم نسمع في حياتنا أنه أخلف وعده واستخف بالجموع التي تنتظره

ومن تعصبها الجسيم الملموس حادثة المسرح الذي شاهدت فيه تمثيل روميو وجوليت وقالت انه لشركة سورية مسيحية وان الذي كان يغني وله الدور المهم سوري مسيحي وان اثنين من الممثلين قطعا التمثيل نحو عشر دقائق ليحاولا أن يعمدا الخنجر فلم يفلحا ثم خرجت عجوز من المسرح وبعد اللتيا والتى وقفت لاغماده وان كل المشاهدين كانوا ينظرون الى السقف أو الى أرجلهم أو وراءهم باعين كبيرة لاغراض أخرى وان الحاضرين كانوا يحيون أنين (جولييت) بالضحك كل هذا الهراء ملفق لان هذه الرواية كانت تمثل قديماً عند الشيخ سلامه حجازي ثم انتقلت بعد موته الى مسرح عكاشه

ومعروف ان الشيخ سلامه ترك شركة اسكندر فرح واخوته من ثلاثين سنة تقريباً أي قبل مجيء الكاتبة الى مصر بثمان سنوات وفي عهد زيارتها لمصر كان الشيخ سلامه وحده صاحب المسرح فأين اذن هذه الشركة السورية المسيحية الموهومة والممثل السوري الاول ؟ وهل يعقل الصبيان أن كل هذه الجموع لم يوجد فيها فرد ينظر الى المسرح فلم اذن جشموا أنفسهم السهر والانتقال من أنحاء القاهرة وضواحيها البعيدة وأنفقوا ثمن التذاكر وأجر الانتقال ؟

ولنفرض جدلا أن في هذا الافتراء أثر من الحقيقة يصدق على بعض أفراد

يعدون على أصابع اليد فهل هذا خير أم مايقترفه الباريسيون في أكبر التياترات والذى وصفه (فكتور مارجريت) في رواية (المتفتية) (La Garçonne) أو (الغلامية) ان اردت مما أخجل أن أذكره للقراء.

نسائل انفسنا ما الذي استفاده هذا الجمع المحتشد من هذه المحاضرة السخيفة ؟ وما الذى استفادته الكاتبة من هذه السياحات والرحل في بلاد الشرق وهل أنفقت الآن الدنانير لتشترى بها بعض الفكاهات وتنظر الى عادات العامة من السوقة لتسجل عليهم بعض نكات تضحك منها من يستمعونها ؟ انها اذن لصفقة خاسرة

لقد كانت هذه المحاضرة البذيئة كبرد سطا على شهرة هذه الكاتبة الموهبة بالمسجد الخلاب فقضى على هذه القشرة وأظهر للعقلاء ما اختبأ تحتها من حديد أسود . وهذا شأن المرأة فى العالم لا تنبغ في شيء وان حصلت على بعض شيء من الفضل بالممارسة وطول المزاولة فلا يزال عقلها ضيقا لا يتعدى الدائرة التى اشتغلت بها

ولو كان عندها شيء من الكياسة وحسن التفكير لشفلتها عيوب أمتها عن عيوب غيرها من الامم . وان هذا الشرق الذى تعيره بالكسل والنوبة العصبية والوحشية وغيرها لارق أخلاقاً وأشرف عواطف كما انه يبرأ من المدنية الاوروبية المزيفة !

هل جهلت أن أمتها فاقت فى الشهوات والملذات الحيوانية والتفنن في الموبقات عهد الرومان ؟ أما قرأت ما كتبه « ايميل زولا » و« بريو » و « فكتور مارجريت » والدكتور « بلز » في المجلد الثالث من كتاب المعالجة الطبيعية صحيفة ٧٥٢ مما تقشعر له أبدان الشياطين ؟

أتناست أن لغتنا العامية التى حكمت عليها حكمين متناقضين في وقت واحد من انها وحشية وموسيقية أرق وأفصح من لغات أمتها العامية مثل « الشارابيا » و « الجاسكون » و « البروفنسال » وغيرها مما لو قورنت برطانة زنوج افريقيا

وحمر أمريكا لفضلنا هذه الاخيرة وعددناها أرقى وألطف منها ؟ أتجاهلت أهل بريطانيا الفرنسية المتاخمة لبلدها «هونفلور» وما هم عليه من الخرافات والسذاجة التي لم تفارقهم الى الآن ولا تتفق مع القرن العشرين ؟

أضحكت الكاتبة علينا سامعيها بنكاتها السمجة التى لفقتها ولكني سأضحك القراء بحادثة حقيقية حصلت بباريس تدلنا على مابها من الآلاف المؤلفة من السخفاء والاغبياء وذلك بين طبقات الفنيين أنفسهم وهي من الحوادث التى سجلت عليهم العار والخزي

نشرت مجلة (الالستراسيون) الفرنسية في سنة ١٩١٠ مقالة ضافية بقلم الكاتب الكبير (هنري لافدان) أحد أعضاء المجمع العلمي وصف فيها معرض الصور الذى أقامه المصورون (الاحرار) فقال :

شاهدت فيه ثمانين الف فيأة لاصورة وحاولت أن أفهم منها شيئاً فما استطعت شاهدتها من الجهة اليمنى واليسرى فلم أفقه لها معنى فسولت لي نفسي أن أشاهدها من بين ساقي لارى الصور معكوسة وبهذه الطريقة فهمت بعضاً من ثمانيها التافهة

حرض هذا القول بعضاً من محررى مجلة (فانتازيو) الباريسية فتفننوا فى القاء درس زاجر فاضح لهؤلاء المغرورين

رأى أحد هؤلاء المحررين جحشاً لصاحب فندق حقير يحب السكر فاذا أكله حرك ذيله طرباً وفرحاً فاستصحب هو ورفاقه محضراً من محكمة (السين) وذهبوا الى الفندق ومعهم لوحة من نسيج التصوير وأصباغ وريشة كبيرة وطلبوا من المحضر أن يدون بمحضره ماسيعاينه ثم علقوا اللوحة البيضاء في الحائط على ارتفاع يماثل قامة جحشنا وربطوا الريشة بذيله وكلفوا أحدهم بغمسها في الاصباغ كلما جفت ثم أنشأ الآخر يلقم الجحش قطع السكر وطفق ذلك المصور الماهر ينقش صورته بذيله وكلما أتم قطعة من اللوحة حركوها فصور بحراً خضما تغرب فيه الشمس وكتبوا عنوان الصورة « اضطجعت الشمس على الادرياتيك » وبقيت امضاء المصور

فاختاروا لها مرادفها الادبي (اليبورون) فقسموه شطرين وقدموا الشطر الاخير فصار (بورونالي) ثم أرسلوا الصورة الى المعرض وقالوا للقائمين بأمره أنها لاحد الاحرار فاعجبوا بها أيما أعجاب ووضعوها في أرفع مكان بصدر المعرض

وبعد يومين من عرض الصورة فأجأتهم مجلة (الالوستراسيون) بمقالة شرحت فيها كيفية تصوير هذه الصورة وشفعتها بصورتين فوتوغرافيتين احداهما لمصورنا الفني حينما كان مشتغلا بتصويرها وأخرى لمحضر المعاينة الرسمي حتى لا يخالج القارىء شك في حقيقتها فكان هذا الدرس داعية لاقفال معرضهم وهربهم من الخزي والعار

رقص الاموات

عنوان لكتاب ظهر حديثاً في عالم الادب نمقته باللغة الفرنسية براعة الكاتبة الفاضلة أنشراح هانم شوقي ولقد ابتهجت افئدتنا ان رأينا كاتبة ثالثة تحسن الانشاء الفرنسي فاصبحت تفتخر بها البلاد هي والسيدتان حرم محمد عارف باشا واحمد خلوصي بك

وقبل ان نخوض في تحليل هذا الكتاب يحسن بنا ان نسرد كلمة عن منشأ رقص الاموات

ابتدأت الفكرة الخرافية لرقص الاموات في القرن الرابع عشر وانتشرت في جميع بلاد اوروبا تقريباً اذ يعتقدون ان جميع الاموات ملك وصعلوك وشيخ وطفل وكاعب وحيزبون يشتركون في رقص يرأسه الموت وبيده كنارة (كمنجه) من هيكل عظمي وقوسها قطعة من العظام . ومغزاه ان القضاء يحتم الفناء على جميع الاحياء .

وتوجد أعظم الصور التي تمثل رقص الاموات بمدينة (بال) وهي من رسم (هولبن) ومن الصور المشهورة أيضاً صورة (سان ماكلو)

وقد نظم كثير من الشعراء عدة قصائد لرقص الاموات ووضع له مشاهير الموسيقيين الحانا عديدة احسنها الذي الفه (كاميل سان صانس) الموسيقى الفرنسي الذائع الصيت ولحن به قصيدة الشاعر الفرنسي (هنرى كازاليس) واني أترجم منها فقرة توضح لنا فكرة رقص الاموات

« زيجه زيجه زيج ، الموت يرقص ضاربا بعقبه رمسا ، يوقع المنون على كنارته في منتصف الليل لحن رقص ، زيجه زيجه زاج ، تزمجر ريح الشتاء والليل معتم والزيزفون يئن وقد انتشرت خلال الظلام الهياكل العظمية البيضاء تعدو وتقفز تحت اكفانها الكبيرة ، زيجه زيجه زيج ، كل مضطرب هائج اذ تسمع طقطقة عظام الراقصين ، ولكن انفض الراقصون على حين غفلة وركنوا الى الفرار يدفع بعضهم بعضا حينما سمعوا صياح الديك »

يتركب كتاب رقص الاموات من مقدمة وخمسة اقسام ونتيجة . فالاول لقدماء المصريين والثاني لليونان والثالث للرومان والرابع للعرب والخامس للمعاصرين والحديثين

نرى أن مقدمة الكتاب لا يمكننا أن نعتبرها مقدمة بمعنى الكلمة لانها لا تبلغ صحيفة واحدة قالت فيها :

« ليت شعرى الى أين تقودنا المدنية الحديثة ؟

هذا هو الغرض من ذلك الكتاب الادبي والذى وضحناه في القسم الخامس حيث تحتد فيه المناقشات بين خيالات المعاصرين والحديثين للوصول الى المطلب الاسمى للانسانية ، وانها تأمل أن هذا الكتاب الوحيد فى بابه الشامل لصفحات من الفلسفة والتاريخ يصادف قبولا حسنا لدى الجمهور وانها تلتمس المغفرة لطائفة من أفكارها الشخصية

بينت لنا الكاتبة الفاضلة ان كتابها ادبى فلسفى تاريخي ولكننا نعترف للكتاب بقيمته الادبية الثمينة وننكر عليه الفلسفة والتاريخ

تم سطور الكتاب على أدب وافر ، وبيان ساحر ، وعواطف متأججة وخيالات راقية ، وشعور شريف حي يئن ويرثى لآلام ترزح تحتها الانسانية وسهام طائشة تخرج من كنانة القضاء فتصيب الكرام وتنبو عن اللئام

ان ذاك الانشاء ليس إلا شعراً منثوراً من الشعر الوجداني الذي يمثل فيه الشاعر شعوره وعواطفه وهو من نوع القريض (رومانتيك) ومصداقاً لقولنا نترجم للقراء جزأ من نتيجة الكتاب :

« أيها النيل المحبوب ! يا من هو سميري فى آلامي ، وسلواني فى وحدتي ، انني اجد صدى روحي حينما انصت الى صوتك ، تنفحني احياناً نغمات لجبك الشجية بالسعادة والامل ، وبخيل الى وقت اضطراب امواجك الهائجة المزبدة وتكسرها على الشواطىء انها تبكي ماضياً لن يعود الى الابد او انها تحتج على مظالم الناس واستبدادهم

ليت شعرى أتنسب هذه المظالم الى الانسان أم الى الحروب ؟

الى أي حظ تقودنا ؟ ترى تلك الايام حداد دائم .

أو انك لتنتقم من هذه الاعوام القاسية تريد أن تحقق صورته التى تموج فى فكرنا ؟

اذا نظرنا الى شكل الكتاب وموضوعه وجدناه مجرداً من الصبغة التاريخية لانه عبارة عن سرد جمل صغيرة من معلومات تاريخية عامة حوت الغث والثمين والاوهام

نرى المؤلفة تبكي على البرامكة وتستهجن عمل الرشيد ولو انعمت النظر في تاريخهم ودرسته درساً دقيقاً لعكست فكرتها . ولقد فاتها ان يحيي بن خالد البرمكي وولديه جعفرا والفضل كانت بايديهم جميع سلطة الخلافة وصيروا البلاد الاسلامية أشبه بمستعمرة فارسية واستولى البرامكه على جميع وظائف الخلافة الكبيرة وتملكوا أغلب أراضيها وضياعها وقصورها وامتصوا كنوز البلاد ولو طال لهم الوقت بضع

سنين لاغتصبوا الملك من الدولة العباسية. كانوا يغدقون جزيل العطاء على الشعراء ليخفوا أعمالهم الشيطانية ويترنموا بمديحهم ذراً للرماد فى عيون السذج

نجدها تمجد معاوية ولو عرفت حقيقته لصبت عليه أسوأ اللعنات ، غرتها فتوحاته وما درت انه ما فتحها الا جشعاً وحرصاً على الملذات والشهوات وحباً في الملك . كان والياً بسيطا فاختلس الملك من الامام علي وهو اقرب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعظم المسلمين علما ودينا وورعا وزهداً . اتهمه بانه قتل سيدنا عثمان بن عفان وأشعل نار الفتنة وخرج يحارب جيوش الامام علي وطفق المسلمون يتقاتلون ومات منهم الالوف . كان معاوية يتنعم فى القصور الشامخة ويأكل الاطعمة الفاخرة ويلبس الديباج الموشى والامام علي يلبس المسوح البالية ويأكل خبز الشعير من غير ادام

ولقد صادفت أغلاطا عديدة في الاسماء العربية مثل المعاوية والجفر والمهاوندي وامية ابن ابي الصلت بفتح الهمزة وكسر الميم واسحاق بفتح الهمزة والبرمكي بفتح الراء ومالك ابن انس بضم الهمزة وسكون النون والموطاي بدلا من الموطأ وهو كتاب الامام مالك وابن بحذف الهمزة وكسر الباء كما يلفظها المغاربة وغير ذلك

واذا بحثنا في الكتاب من الوجهة الفلسفية كما تدعي الكاتبة وجدناه عاطلا عنها مطلقاً لان سرد أعمال العظماء من الرجال على لسان الموتى لا يعد من الفلسفة

نرى أن النتيجة التي ترجمنا للقراء نصفها لاترتبط بالكتاب ولا يستنتج منها شيء يدل على مرمى الكتاب بل هي فى حد نفسها قطعة شعرية بديعة منثورة . وكذلك اسم رقص الاموات لاينطبق على الكتاب ويستنتج مما سردناه أن الكتاب أدبي محض سلس العبارة مكتوب بذوق سليم يشهد ببراعة الكاتبة وللكاتبة عدة مؤلفات غيره لم تطبع وهي : أولا — روح الانسان هي مقدار من

كهرباء ومغناطيس الطبيعة المكتشفة — ثانياً — وحدة الدين واللغة والمنشأ ثالثاً — تولد المركبات من الاختلاط أو النمو التدريجي للطبيعة — رابعاً — مدة وجود روح الانسان — أو تأثير استدعاء الارواح والتنويم المغناطيسي

كيف نتعرض بالبيان

قرأت منذ أيام بجريدة السياسة الغراء مادار من المناقشات حول « اسلوب في العتب » و « الجمال والحب » ومقارنة الاستاذ الفاضل الدكتور طه حسين بين الرسالتين وما سرده من طلي التحليل وصريح الحكم دون محاباة وخدمة للادب. وقد ختم الموضوع بنداء للكتاب لابداء آرائهم فى علاج ما انتاب اساليبنا الانشائية من الادواء فلبيت نداءه مبديا رأيي الضعيف فلربما صادف قليلا من الفائدة المنشودة

يحسن بنا قبل وصف الدواء أن نشرح الداء ونستعرض بعضا من أنواع الكتابة الممقوتة فى وقتنا الحاضر وهي تشمل نوعين : احدهما للجامدين المحافظين على القديم ، والثاني للمحدثين المحمومين .

دار الفلك آلافا من دوراته وتغير وجه الارض وما تقله من كائنات ومعالم وآثار سائرة كل يوم فى سبيل الاستحالة والتجدد والارتقاء الا الجامدون لم ينزعزعوا عن عقيدتهم .

درس هؤلاء على أساتذة من شاكلتهم فسموا عقولهم بحب القديم وقتلوا خيالهم وعواطفهم وأرشدوهم الى الكتب القديمة التي تماثل مشاربهم فاغرقوا لهم فى مدحها وصحبوهم الى مجالس الجامدين من أمثالهم فاتخذوهم أصدقاء وظلوا يأتمرون ليل نهار على عبادة القديم والاستهزاء بكل حديث وسرى هذا الداء في دمهم فلا سبيل الى شفائهم وانتشالهم من الضلال

نلاحظ فى الجامدين انهم اذا أرادوا أن يكتبوا شيئاً استملوا محفوظاتهم من الرسائل والمقامات والاشعار السخيفة التى حفظوها عن ظهر قلب أو قلدوها بتغيير طفيف دون أن يعرفوا لهم خيالا يناجونه أو وجداناً ينصتون اليه

ومن هؤلاء فئة حفظوا كثيراً من السجعات الموسيقية التركيب الخالية من المعنى والمبنى مثل « نسيم الصبا » و « لوعة الشاكي ودمعة الباكي » وما شاكلهما فيرتبونها بشيء من الحذق . وهؤلاء لا يخدعون الا السذج من الجامدين وما فتئوا معروفين بجمودهم عند الافاضل من الكتاب

اما الفريق الثاني وهم الحديثون المحمومون فكثير منهم يرصون الجملة فوق الجملة وكل منها في سطر على نمط الشعر وهي على انفرادها أو في مجموعها كأنها بحران مصروع أو هذيان محموم

ابتدأ ظهور هذا النوع منذ بضع سنين فى مجلة السفور ثم انتشرت جراثيمه وانتقلت الى بعض المجلات الاخرى انتشار الطاعون وباليته اقتصر على الصحافة بل طبعت منه كتب واهدى الى اثنان منها على كره

ومن هذا الهذيان نوع آخر لايتعدى الحب والالم والفراق والروض والندى والشفق يتخلله شيء من المداعبة الباردة والفكاهات السمجة وان فتشت فيه لم تجد جملتين مرتبطتين بعضهما ببعض أو معنى مسلسلا أو خيالا مفهوما

تلك أمثلة عرفنا بها ادواء بيانا القتالة ولا أرى سبيلا لاستئصال شأفتها الا اذا راعينا الامور الآتية :

اتقان اللغة العربية واحراز جميع ما يحتاجه الكاتب من الالفاظ التى تفى فى التعبير عن كل معنى يريده مع تجنب المتنافر منها ونبذ المبتذل المتداول عند العامة بشرط معرفة مدلول كل لفظ بالضبط والفروق بين المترادفات وبذلك تضع كل كلمة في الموضع اللائق بها

واني ارى رأي الدكتور طه حسين في التوسط بين القديم والحديث حتى

تحيي لغتنا وبذلك نلم بطرفيها ولا نبتعد عن أحدهما ويسهل علينا فهم اسرارهما

والاعتناء بصوغ التراكيب صوغا عربيا متينا وخير الاساليب القرآن والحديث والشعر في الجاهلية وصدر الاسلام

ومراعاة الدقة في الموضوع فلا يكون الكلام إلا بمقدار لان الثرثرة واللغط والحشو الذى لامعنى له . كل ذلك من الامور التي تهوش على القارىء وتبعده عن فهم الموضوع وتكون كضباب كثيف أمام النواظر يحول بينها وبين حقيقة المرئيات

وتجنب المحسنات البديعة إذ هي تزويق للالفاظ وتشويه للمعاني وتقييد للفكر والخيال .

والابتعاد عن السجع إلا ماجاء عفواً دون تكلف في بعض الاحيان ومراعاة انسجام الجمل ووزنها الموسيقي ليلذ وقعها للآذان

وان أحرز الكاتب جميع ما سردناه ولم يوهب ذوقا سليما وحسا مرهفا وعقلا كيسا يراقب شعوره ويراجعه ويرشده الى السداد والصدق لا يوفق الى اجادة البيان

والذوق الوهبي وحده لا يبلغ أوج الرفعة الا اذا ضم اليه الذوق الكسبي وهذا الاخير يكتسب باحراز نصيب يفي بالحاجة من كل علم وكذلك فهم أسرار الفنون الجميلة من كثرة الاطلاع على منشآتها وقراءة ما كتب فيها من التحاليل والنقد . ولا ننسى ان علم النفس هو من الزم العلوم للكاتب .

ان طيف الشعر ينفر من الجلبة والجماعات والهموم والتعب وانحراف الصحة وامتلاء البطن . فان أردت مناجاته فلتكن في البكور قبل استيقاظ من حولك وأنت منتعش ناس كل شيء من اعمالك ولتتفرغ عن كل حائل يحول بينك وبين نفسك ، وعندها امتشق يراعك وتجرد من محفوظاتك ومعلوماتك واستمل خيالك وناج وجدانك ودون ما يوحيانه اليك دون أن تفكر في اتقان انشائك حتى تنتهي من موضوعك ثم راجع ما كتبته لتنقح كلمة أو تقدم او تؤخر غيرها وتيقن أن ما أوحي اليك فى المرة الاولى خير مما تتكلفه في الثانية

ومن أهم أركان الانشاء دقة الملاحظة والاستنتاج وبهما يصل الكاتب الى اتقان الوصف وتصوير الاشياء للقارىء تصويراً يقربها من ذهنه كأنه يراها رأي العين كما انه يتوصل بهما وبمعلوماته البسيكولوجية الى فهم طباع الانسان وأخلاقه وذوقه ومعلوماته بملاحظة أي شيء من آثاره ككتابته وتصويره ونحته ومقتنياته وأحاديثه ومعاملاته

ويجب على الكاتب أن يرتب الفكرة ويوضح المغزى الذى يرمي اليه وأن يكون الموضوع متماسك الاطراف متصل الفكرة يسود الانسجام على جميع أجزائه

هذا ماعن لي من الملاحظات وحبذا لو عالج الكتاب هذه الادواء وحاربوا تلك البدع السخيفة حتى ترتقى عندنا ملكة البيان ونحيي لغتنا ونرجع اليها مجدها القديم

بين القريض والحرية

جواب على استفتاء الكاتب الكبير

الاستاذ عبدالعزيز البشري

مضى ردح من الزمن لم نتمتع فيه بمطالعة درر أستاذنا الاعظم الذى كان ينشرها فى السياسة الاسبوعية بعنوان « في المرآة » ولقد نغصني ما قرأته من شكواه من مرض انتابه وانى أدعو الله أن يمتعه بالصحة والعافية واطمئنان البال والرفاهية ليزيد فى انتاجه ويستمر في السلسلة الظريفة الرشيقة التى طالما شنفت أسماعنا ورنحت اعطافنا من الاعجاب والطرب لدعابتها اللذيذة وفكاهاتها الممتعة ورشاقة أسلوبها الموسيقى الساحر

تساءل الاستاذ في مقاله الذي نشره في ملحق السياسة الاخير عن ماهية القديم والحديث ومميزاتهما وفوارقهما . ولا أشك في أن ذلك من تجاهل العارف وتحريض ظاهر لمعركة قلمية يثيرها الكتاب ثم يبتسم لهم الاستاذ من بعيد بسمة حافلة بمختلف المعاني

ولربما انعكست الآية واستفز الاستاذ رد لم يرق له واحتدم الجدال فكتب بدل الرد ردوداً فهي اذن مباركة من الوجهتين ومفيدة في الفرضين

ليت شعري هل أنا أول من دفعه لجاجه واستحثه تطلعه حتى استهدف لنكتة لاذعة أو لتهكم قارس . وقد يكون الدافع لي استدراج الاستاذ الى الخروج الى الميدان بعد عزلته الطويلة وحرماننا من شيق دره وظريف عباراته ورشيق أشاراته

ولا يخفى على سيدي العزيز ان الحديث الشائع في الشرق كله مستمد من الادب الغربي الحديث ولكن هناك فريقاً أساء استعماله لضعفه في العربية وركاكة تعبيره وسوء تراكيبه ، وانتاج هؤلاء هجين أقرب في الشكل والهيئة الى الاسلوب الافرنجي

وأما الفريق الآخر ذو القدم الراسخة في العربية والذوق السليم فانه استعان بطرق التفكير الحديث فقط ولكنه مافتىء محافظاً على أسلوبه العربي المتين الصميم فترى تعبيره حديثاً في التفكير قديماً في الصوغ ومتانة التراكيب واني لا أغلو ان قلت أن الدكتور هيكل بك هو حامل لواء الانشاء الحديث في القطر المصري بل في جميع الاقطار الناطقة بالضاد

بقي علينا أن نقول كلمة في طريقة التفكير في الادب الحديث وقانون الكتابة الذي يجب أن تراعي حرمته بكل دقة حتى لا يشط الانسان ويخرج من منطقته أو يغير طابعه الذي وسم به

يجب على الكاتب قبل كل شيء أن يعلم أن الانشاء لابد أن يكون في الوقت

نفسه واصفاً معبراً بمعنى أنه يكون دقيق الوصف صادقه ومعبراً عن جميع أنواع الشعور التي يظهر أثرها فى نفس الكاتب حينما يطرق موضوعه كما يصور المصور الماهر صورة جميلة لشخص دقيقة الشبه صادقة الملامح تقرأ على محياها جميع العواطف التي كانت بادية عليه وقت التصوير

ويلزم الكاتب مراعاة الحقيقة والابتعاد عن الغلو وان يكون دقيق الملاحظة ليتمكن من اصدار حكم صادق . ويجب عليه أن لا يعرقله فى انشائه تقيده بتنميق لفظ أو افتتانه بشيء من المحسنات البديعية السخيفة أو السجع المرذول واستملاء الذاكرة لتقليد شيء من محفوظاته التافهة .

وهذه القوانين التي سردناها يراعيها الموسيقيون والمصورون والمثالون لانهم كلهم فنانون ويسعون لغاية واحدة ولو اختلفت طرق التعبير عند كل منهم، فذاك يعبر بنثره وقريضه والآخر يعبر بريشته واصباغه وغيره بنغمه والحانه والمثال بازميله ومطرقته

نرى بيتهوفن عطارد الموسيقي يدوس على بعض القواعد ان كانت فى طريقه حجر عثرة أو نبا ذوقه عنها ، فهو يستمر في تعبيره القوي ووصفه الشائق دون أن يتقيد بتنميق سخيف فلذلك نرى موسيقاه تصل الى الافئدة قبل غيرها وتذكي ماخمد من عواطفها الهاجعة

ونشاهد في تصوير رمبران نفس هذه المحاسن لاننا حينما نلقي نظرة على صورة «درس التشريح» مثلا نرى استاذ التشريح وأمامه ميت شق ذراعه ثم ابتدأ يحاضر الاطباء ويشرح لهم دقائق العلم فكأنك تسمع نبرات صوته وترى أشارته والكل مرتسم على وجهه الاصغاء التام ، وهذه الصورة من أفخم الصور الناطقة .

أما القديم فلا يراعي شيئاً مما سردناه بل يستعين بالذاكرة فيستعرض ماقاله الكتاب في الموضوع وينتخب منه شيئاً يحوره بعض التحوير ثم يزوقه بشيء

من المحسنات البديعية الممقوتة أو يقفيه بسجعات مرذولة وتراه يغلو في تشبيهه غلواً سخيفاً ويقول أنه علا السماك وان لمس الحرير يدمي بنان محبوبه وخطرات النسيم تجرح خديه أو يدخل في قافية الهندسه ويقول هب أنك مركز الدائرة أو ضلع المثلث ثم ينتقل من هاته القافية الى غيرها من قوافي العلوم والفنون كما ينتقل الحاج سيد قشطه من قافية التراموای الى قافية الوابور ، وزعيم القديم معروف وأخلاقه معروفة ومسجلة في بطون الصحف فلذلك لا أذكر اسمه ومن نوادره الغريبة أنه كتب الى فيما مضى خطاباً كله بذاءة وسوء أدب بامضاء يوسف قندلفت طالب بالمدارس الثانوية

هذا رأيي القاصر وعسى أن يتفضل الاستاذ ويكون قد خرج من صمته الطويل وأن يمن عليه الله بالعافية ليمتعنا بلالئه الفريدة وأسلوبه الموسيقي الفتان

رد الاستاذ البشرى

اطلع الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى على هذا المقال فبعث الى الاستاذ حجاج بالرد الآتي : —

حلمية الزيتون في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٣٣

سيدى الاستاذ الاديب العظيم

احمد الله تعالى اليك. ولقد وفد على كتابك الكريم وانا في بعض الصحوة من الحمى التي تغشاني من بضعة أيام ، فاهتبلت هذه الفرصة وتلوت مقالك تلاوة امعان وجد فكر ، ووالذى بيده نفسى ، ما عدوت في هذا الباب ما في نفسى ، وان كنت أنت أنور بيانا ، وأدق في الفروق تعبيرا فنحن اذن ياسيدى متفقان حق الاتفاق ولعل سيدى يذكر انني قلت في ملحق السياسة ما معناه : « ان الادب الذى لا يترجم عن البيئة التى يخرج فيها ليس أدبا ، وان الاديب الذي

لا يؤدي ما يختلج في نفسه هو وما يتنزى من عواطفه هو ليس أديباً »

بقى أن ألقي على سيدى الاستاذ هذا السؤال : هل بقي في مصر ممن يقدر الناس لهم في الادب قدراً من يفكر ويصور على ذلك الاسلوب الذى عابه الاستاذ وهجنه بحق ؟

أبقى من مشيخة أهل الادب من لاينظر الى الحياة إلا بعينى بدوى ، ومن لايفكر إلا برأس أموي ، ومن يعمي عن كل مايحيط به من أسباب الحياة ؟

هل بقى في مصر من تزدهيه طائفة من الجمل وشتى الاسجاع فيجعل كل همه في تلفيقها من هنا وهناك ويستكرهها كلها في سلك واحد ونخرج موضوعاً والسلام لاأظن ياسيدى فان وجد فرد أو أفراد فهم على شرف الفناء .

وانى ياسيدى اشكرك أجل الشكر على ما تحلتنيه من فضل لا اعرفه لشخصى واسامحك على ما قدرت في من ايجاع واقذاع . والسلام عليك ورحمة الله .

المخلص

عبدالعزيز البشرى

تطور الادب العربى وموضعه في مصر اليوم

ملحوظات وآراء

لقد شاقني المقال القيم الذي القاه صديقنا وأستاذنا الكبير الشيخ عبدالعزيز البشري على زملائه حضرات أعضاء (نادي القلم المصري) ولقد سرد لنا في لمحته تطور الادب فى مصر في مختلف العصور ووصف سيره وخطاه وكيف تدرج الى الرقي ولا يسعنا الا ان اسدى اليه آيات الشكر والثناء على اهتمامه بالادب وما يبذله من العناية فى تشخيص ادوائه ووصف العلاج الناجع لشفائه . غير انني لاحظت عليه بعض احكام قاسية ينقضها فى نفس المقال واني أذكر تلك المواضع بنصها لنشرك القراء معنا في الرأى : ادركت مصر في عصر اسماعيل حظا محمودا من الحضارة

فشاعت فيها العلوم واستوثق الاتصال بينها وبين بلاد الغرب التي كثر روادها من المصريين وانحدر العديد الاكبر من الغربيين الى هذه البلاد سياحا ومستوطنين كما نزحت اليها طائفة من أعيان الادباء والكتاب السوريين .

لهذا وبذلك جعلت الثقافة العامة تتلون بلون جديد وجعلت الاقلام تستشرف بقدر الى أسباب الحضارة الحديثة ولا يفوتكم ان المطالب العسكرية في ذلك الحين لم تصبح مما يستغرق هم القائم بل لقد انبسط منه فضل كثير للآداب والفنون وكان أول ما انبعث في هذين البابين الصحافة الشعبية والتمثيل)

اعترف أستاذنا في هذه الجملة اعترافا صريحا لا يخالجه أدنى شك ولا ريب بان الفضل في نهضة الادب راجع الى اختلاط المصريين بالغربيين والاستنارة بحضارتهم وآدابهم وفنونهم وعلومهم . فما باله في موضع آخر لا يعترف لشعراء الغرب بفضل وأخذ يقدح في ماعرب من الادب الغربي بلا استثناء إذ قال (وقام بازاء هؤلاء جماعة من شبابنا قد استهلكهم الادب الغربي فلا يرون أدبا الا ما قاله شكسبير وبيرون واضرابهما وأدوا الينا طريقا من هذا النظيم في لغة ليس منها عربي الا مفردات الالفاظ ، ألفاظ يكاد المرء يشهد بابنيتها وبين ما قسرت عليه من المعاني من التصافح بالايدي والتراجل بالارجل ولولا ما يرتبطها من مثل قيد الحديد لطار كل منها الى عشه فخرج لنا من ألوان التعبير مالا يؤاتي الذوق الشرقي ولا يستريح اليه الطبع العربي . وجعل كذلك جماعة ممن تعلموا في بلاد الغرب يعالجون في العربية أصابه المعاني الظريفة التي لامسها حسهم وهدتهم اليها أسباب تفكيرهم فعجزت اللغة أو على الصحيح عجز علمهم باللغة عن حق ادائها فخرج لهم الكلام اما غامضا مبهما واما عاميا أو ما يدنو الى العامي) . هل فاتك يا أستاذى العزيز انك قد خانتك الذاكرة وكتبت مطلع مقالك على النمط الفرنسى اذ قلت :

(وأخيراً فهذا نادي القلم)

أنسيت ان مقالاتك الشائقة (في المرآة) ليست الا نوعا من الادب الاوربي المسمى *Humoristique* وهو نوع من الانشاء الفكاهي الكاريكاتوري الذي

يفيض بالتهكم الظريف والسخرية اللطيفة . ألا يتملك شعورك وينسيك آلامك الدكتور هيكل بك حينما تقرأ تعريبه (للبوذيـة) للكاتب والفيلسوف الفرنسي ايبوليت تين ، الا تتهلل بنشوة الاعجاب وتنتقل الى عالم الخيال والاحلام حينما تقرأ القضاء والقدر وروايات شكسبير الشاعر القطرين خليل بك مطران أو البؤساء لحافظ بك ابراهيم

واظنك لا تجهل ان المرحوم شوقي بك درس الآداب الفرنسية في باريس ولولاها لم يتوج في دولة القريض . الا تهتز طربا واستحسانا حينما تقرأ مذكرات مسافر للاستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبـد الرازق وهو الرقة المجسمة ومثال الرشاقة والظرف وهو مدين بمواهبه هذه الى اللغة الفرنسية والاعوام التي قضاها بين ابنائها ورحله العديدة بعد اوبته .

انني أشد منك تعصباً للعرب والعربية ولكنني لا اجرؤ ان أقول ان الادب العربي يفوق الاوروبي وان في شعراء العرب من يفضـل على جوت وشلروهين ولامارتين وهوجو ودوفني وشكسبير وملتون وليبوباردي وتاسو وغيرهم .

لا انكر ان شعرنا العربي يفوق شكلا ووزنا الاوروبي ببحوره الموسيقية الوزن وقافيته المتحدة في القصيدة من أولها لآخرها أما الاوربي فلا يقيد بوزن موسيقي بل بعدد المقاطع واتحاد القافية في كل شطرين .

لقد لمح سيدي الفاضل بان النهضة الادبية ابتـدأت في عصر خديو مصر اسماعيل باشا ولكنها في الحقيقه ابتدأت قبله بزمن بعيد في عصر المماليك اظهور السيد اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار وكان أولهما لا يقل عن شعراء الطبقة الاولى من عصرنا وقد ظهر في عهد محمـد على باشا الشيخ شهاب الشاعر الموسيقي صاحب السفينة وله ديوان كبير والسيد على افنـدي الدرويش . وظهر في عصر الخديو سعيد باشا الشاعر العبقري محمود افندى صفوت الساعاتي وكل من ذكرناهم يعدون طلائع النهضة الادبية في مصر ويحق لهم كل فخار وكل مجد لكونهم وجدوا في زمان مظلم حالك ساد فيه الجهل وسوء الخلق .

ولقد وجه أستاذنا الكبير نداء الى الامة لتستخلص لها أدبا خاصاً عليه طابعه المصرى أو توجد له اسلوبا يميزه عن غيره من آداب الامم الناطقة بالضاد ولكنني أرى صعابا جمة تعترض أمانيه .

ان الحضارة الاوروبية قد اكتسح تيارها العالم حتى انضوى تحت لوائها طائعا مختارا حينما تذوق مناهل علومها وآدابها وفنونها وصناعاتها وتحقق انه في حاجة ماسة اليها وعليها قوام حياته الراقية . درس كثير من شبابنا في انجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وامريكا وتشبع كل فريق بآداب اللغة التي درسها وأصبح تفكيره وليد تربيته فلا يستطيع ان يحيد عما نشأ عليه . فان اهمل لغته العربية ولم يحرز منها نصيباً وافراً كان اجنبي التفكير اجنبي الاسلوب وهناك الطامة الكبرى .

ان طريقة تعليم اللغة العربية في مدارسنا غير مجدية وينقصها أشياء كثيرة ولو أجاد الطالب دراسة لغته لما تورط في الاسلوب الافرنجي ولما عرب الآداب الاوروبية كلمة كلمة حتى يشوهها بتراكيب غثة ركيكة ولو صرف الطلبة قليلا من أوقات فراغهم في مطالعة كتب الادب القيمة وتفهم مايستعصى عليهم فهمه بدلا من مطالعة الروايات السخيفة الركيكة والمجلات التجارية المنحطة لما تدهور مستوى ثقافتهم اللغوية الى هذا الدرك المخجل .

وعسى أن يحقق الله آمال أستاذنا في الادب المصرى حتى يرقى ويوف بالبلاد الاجنبية بعد ترجمته كما ترجم شعر تاجور الى أغلب اللغات الاجنبية وطبع نحو العشرين وكان له المحل الارفع في مجتمع وناد وكما سبقه الى ذلك شعراء الفرس مثل حافظ والفردوس وابن الخيام .

رد الاستاذ البشرى

تعقبني صديقي الاستاذ الجليل القدير محمد كامل حجاج فى الخطاب الذي القيته في أول اجتماع (لنادى القلم) . فأخذنى أولا بالتناقض بين قولي فى بعض هذا الخطاب « ادركت مصر فى عهد اسماعيل حظاً محموداً من الحضارة فشاعت فيها العلوم ، واستوثق الاتصال بينها وبين بلاد الغرب التى كثر روادها من المصريين وانحدر العديد الاكبر من الغربيين الى هذه البلاد سياحا ومستوطنين ، كما نزحت اليها طائفة من أعيان الادباء والكتاب السوريين »

« بهذا وبهذا وبذلك جعلت الثقافة العامة تتلون بلون جديد، وجعلت الاقلام تستشرف بقدر الى أسباب الحضارة الحديثة ولا يفوتكم ان المطالب العسكرية في ذلك الحين لم تصبح مما يستغرق هم القائم بل لقد انبسط منه فضل كبير للآداب والفنون وكان أول ما انبعث في هذين البابين الصحافة الشعبية والتمثيل »

ثم قولي في مقام آخر من الخطاب : (وقام بازاء هؤلاء جماعة من شبابنا قد استهلكهم الادب الغربي فلا يرون أدبا إلا ما قال شكسبير وبيرون واضرابهما . وأدوا الينا طريفا من هذا النظم فى لغة ليس منها عربي إلا مفردات الالفاظ، الفاظ يكاد المرء يشهد ما بينها وبين ماقسرت عليه من المعاني من التصافع بالايدي والتراكل بالارجل ولولا ما يرتبطها من مثل قيد الحديد لطار كل منها الى عشه ، فخرج لنا من ألوان التعابير مالا يؤاتي الذوق الشرقي ، ولا يستريح اليه الطبع الغربي .

ووجه التناقض بين هذين الكلامين عند صديقي الاستاذ حجاج انى اعترفت في الاول اعترافا صريحا لا يخالطه شك بان الفضل في نهضة الادب (فى العصر الحديث طبعا) راجع الى اختلاط المصريين بالغربيين والاستنارة بحضارتهم وأدبهم وفنونهم وعلومهم بينما انا فى الكلام الآخر لا اعترف لشعراء الغرب بفضل واحد الخ

وبعد فمابي ! الا ان أرجو صديقي الاستاذ حجاجا ان يعيد النظر ويثبت

التفكير فى كلامي ليخرج له ، ان شاء الله ، متسقا متواردا لا أثر فيه لتناقض ولا لتهافت ولا لاختلاف . ذلك بانني لم اعرض البتة لشعر الغرب ولا لشعرائه حتى أشيد بذكرهم أو انتقص اقدارهم . غير انني زعمت ان دخول الحضارة الحديثة وشيوع اسبابها فى عصر اسماعيل ، كان لذلك أثره فى تهذيب الاقلام والالتفات الى المعاني الحديثة التي تلابس حاجات العصر الخ

اما ان يفهم صديقي الاستاذ انني اغض من شعراء الغرب وانتقص من قدر شعرائه لمجرد عرضى لطور من الاطوار التي جاز بها تاريخ الادب فى العصر الحديث فذلك من التعسف الذى لا ارتضيه لمن كان له مثل فضل الاستاذ حجاج وكان له في الادب خطره

يا لله ! ماذنب شعراء الغرب اذا تهالك على اشعارهم في فترة من الزمن فأدوا الينا من معانيهم في صور لا ترضى الذوق الغربي ولا يستريح اليها الطبع الشرقي؟

وانني أوكد لك ياسيدى ، وأنت سيد العارفين ، ان ابن المقفع لو كان ترجم حقيقة كليلة ودمنة عن احدى اللغات الهندية ثم ترجمها على هذا النحو الذي هتفت به في خطابي . أي انه ترجم لفظا بلفظ ، وقسر عصي المعاني الهندية على عصى الالفاظ العربية لما ادرك شأو هذا الكتاب في سخفه واسفافه كتاب آخر !

وأخيراً ، فلقد أحسن الى الاستاذ حجاج اذ هيأ لي الفرصة لاقرر انه كان من النواظير الاوالي الذين جلوا على ابناء العربية صدرا جليلا من بلاغات الغرب فى يسر وفي احسان

بقى ان صديقي الاستاذ حجاج يخالفني في أن نهضة الادب في العصر الحديث انما ابتدأت من أواسط عصر اسماعيل ويحاجني باسماء شعراء وكتاب نجبوا من عهد الحملة الفرنسية الى عصر اسماعيل . واني ما برحت مصرا على رأيي من أن من ذكر وغيرهم انما كانوا خاتمة للعصر التركي لا طلائع للعصر الجديد .

وما كنت بهذا لاغمطهم فضلا ولا لاترهم حقا . فحسبهم انهم أدوا رسالة الادب وأحسنوا بقدر ما يتهيأ الاحسان لمن عاش في عصرهم . وليس يطلب منهم اكثر

من ذلك . ومن العسف الشديد أن نقارنهم بامثال صبرى وشوقي وحافظ والمطران وغيرهم ممن ادركوا هذه الحضارة الواسعة التى ألهمتهم ما كتمته عمن تقدمهم من الغابرين

أسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب ويهدينا جميعاً سواء السبيل

عبدالعزيز البشري

رواية عائدة

السبب في وضعها — واضع الملخص ومنشيء الموضوع وناظمه بالايطالية وملحنها — أول مسرح مثلت فيه — موضوع الرواية — موسيقاها — احتفاء ايطاليا وفرنسا وغيرهما بملحنها — اساءة مريت باشا الى مصر وتحقيره المصريين أمام ملوك أوروبا

شاع خطأ بين الناس أنه لما أتم خديو مصر اسماعيل باشا حفر قناة السويس دعا ملوك أوروبا وملكاتها وأمراءها لحضور الاحتفال الفخم بافتتاح القناة وأراد اتماماً لمظاهر الاجلال وأسباب السرور أن يفتح الاوبرا الخديوية التى كانت وقتئذ تامة البناء والاثاث والمعدات ليزيد مدعويه سروراً واعجاباً وكان ذلك في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

والحقيقة الخالصة أن الاوبيرا التى مثلت في حفلات افتتاح القناة هي ريجوليتو وأما عائدة فقد مثلت بعد هذا الاحتفال أي فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١

فأشار على مريت باشا مدير الآثار المصرية بانشاء موضوع مصرى فأنشأ له موضوعاً خيالياً ملخصاً وأرسله الى (فيردى) الموسيقي الايطالي الشهير فطلب من الخديو مائة الف فرنك فنقدها

وكان بالمصادفة المسيو (كاميل درلوكل) مدير مسرح الاوبرا كوميك سابقاً في مدينة (بوسينو) التي كان فيها وقتئذ (فيردي) فكلفه هذا الموسيقي الشهير بأن

يكتب له الموضوع طبقاً لملخص مريت باشا فكتبه نثراً . ثم عهد بترجمته ونظمه الى الايطالية الى المسيو (جيلانسوني) ثم لحنها فيردى . وقد ترجمت الى الفرنسية حينما مثلت بباريس

مثلت هذه الرواية لاول مرة بمسرح الاوبرا الخديوية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ وبعد النقاد هذه الاوبيرا هي وريجوليتو وفلستاف اعظم ما كتبه المؤلف وقد حازت هذه الرواية ليلتئذ اعجاباً عظيما وحماسة شديدة وأجاد تمثيلها وغناءها نخبة من الممثلين مثل ستيلير وكرستا وميديني ومونجيني وشهيرات الممثلات مثل بوتسونى اناستازى وجروسى

وحينما ابتدىء بتمثيلها في ميلانو بايطاليا بمسرح (لاسكالا) فى ٧ فبراير سنة ١٨٧٢ صادفت نجاحاً عظيما واقبالا باهراً واستدعى الحضور فيردى على المسرح اثنين وثلاثين مرة وقدمت الاسر الميلانية هدية شائقة لفيردي وهي صولجان من العاج ووسام على شكل نجمي من الماس وبوسطه اسم عائدة بالياقوت وفيردى بالاحجار الكريمة

وقد ابتدىء بتمثيلها بباريس في المسرح الايطالي باللغة الايطالية فى ٢٢ ابريل سنة ١٧٧٦ وأول تمثيل لها باللغة الفرنسية كان فى هذا المسرح فى أول أغسطس سنة ١٨٧٨ وابتدأوا بتمثيلها في أوبرا باريس في ٢٢ مارس سنة ١٨٨٠ وقد دعى (فيردي) ليقود بنفسه الموسيقي فلبى الدعوة بارتياح ولم ينقطع تمثيل هذه الرواية من أوبرا باريس لغاية يومنا هذا

نذكر كلمة موجزة عن الموضوع ليكون القارىء على بينة مما سنورده من الابحاث

كانت الحرب قائمة بين فرعون مصر وامونصرو ملك الحبشة وقد وقعت ابنته عائدة في أسر المصريين وألحقت بحاشية (أمنيريس) ابنة الملك . وكانت الفتاتان تحترقان بشعلة حب واحدة ومهيمان برادامس رئيس الحرس . وفي ذات

يوم جاء رمفيس رئيس الكهنة وأنبأ الملك بتقدم الاحباش فعين الملك راداميس قائداً للجيوش المسافرة لرد الاعداء وهو لايدري أنه سيحارب والد عائدة التي شغفته حباً

ثم تقام الصلاة بمعبد فتاح وتنشد فيه الراهبات الاناشيد الدينية ويرقصون الرقص المقدس لينصرهم ربهم في هذه الحرب

احتالت يوماً (امنيريس) على عائدة حتى عرفت سرها وتحققت أنها تحب راداميس حباً جماً . أبغضتها ابنة الملك حينما برح الخفاء وعلمت أنها تزاحمها في حب راداميس ولم تستطع تلك الاميرة أن تنزع البغض من فؤاد أميرتها

رجع راداميس ظافراً منصوراً واحتفل بمقدمه احتفال فخم شائق وقد احضر معه ضمن الاسرى امونصرو أبا عائدة فسمح الملك لراداميس بزواج ابنته جزاء لاعماله المجيدة وما أحرزه من النصر العظيم

عرض امونصرو على ابنته ان تسأل راداميس عن أسرار التجهيزات الحربية والمعدات التي يعدونها ليقضوا بها القضاء الاخير على الاحباش فابت الفتاة فنهرها وثار عليها ودفعها دفعة طرحتها أرضاً وقال لها اني أتبرأ منك ولست ابنتي فرأت أن لامناص لها من الرضوخ لارادته وكانت أماني أبيها حائمة حول استرجاع بلاده وتخليص ابنته من هذا الاسر الممقوت وتزويجها لراداميس

اقبل بعد هنيهة راداميس وأخذ يسامر حبيبته بين خمائل اشجار الحديقة وهو مفتون بحديثها الحلو ثم سألته عن أسرار الحملة التي يعدونها لمواصلة الحرب ووسائل الهجوم وغيرها فابى فالحت عليه فباح لها بكل شيء وكان أمونصر كامناً وراء الاشجار على مقربة منهم وسمع الحديث كلمة كلمة ثم ظهر امام راداميس بهيئة الظافر الشامت فدهش وقال ما اصابني أجنون أم ذهول انت على مسمع مني يا امونصرو؟ ماذا دهاني ؟

وكانت امنيريس ساهرة في هذه الساعة المتأخرة فباغتت راداميس وسمعت

مافاه به فقبض عليه الكهنة واقتفى الحرس آثار عائدة وأبيها حتى لحق بهما . زج الجميع في غياهب السجن ريثما يحاكمون

دخلت ابنة الملك السجن على راداميس وعرضت عليه النجاة ان أحبها وقبل أن يقترن بها فابى فخرجت يائسة خائبة الرجاء، وقد أظلمت الدنيا وضاقت في وجهها

قضي على المجرمين بدفنهم احياء فتسربت عائدة وذهبت الى سجن حبيبها ولبثت معه حتى وافاهما الاجل المحتوم

اتبع (فيردي) في تلحين موسيقي عائده النسق الحديث الرافي وكتبها مترجما عما نفحه به خياله وشعوره دون ان يقلد أحداً وهي من اعظم ما كتب في الموسيقى الحديثة الجدية وتعد هي وريجوليتو (الملك يلهو) صفوة مؤلفات فيردي . وقد جمعت بين فخم الحماسة ورقيق العواطف وشائق الوصف وظريف الرقص وغريبه ومطرب الاناشيد وساحر الغرام وشجي الالحان ومذيب القلوب من الشكوى واني أكتفي بهذه الكلمة القصيرة في وصف موسيقاها تجنباً لتفصيل يستلزم سرد اصطلاحات كثيرة فنية لا يعرفها إلا المشتغلون بالموسيقى الافرنجية أو المواظبون على سماعها وفهم أنواعها

ليت شعري ما الذي حدا مربيت باشا ان يسند الى فواد الجيوش المصرية مثل هذه الفضائح ويصور المصري امام ملوك أوروبا على اشنع صورة اذ جعله مثالا لضعف الارادة وخور العزيمة والخيانة ببيع وطنه لاجل حب أسيرة حبشية ويرفض لاجلها زواج ابنة الملك ثم أبى بعد اجرامه وسجنه أن يجيب طلبها حينما وافته في السجن ووعدته بالخلاص ان قبل زواجها فاصر على عناده الى ان مات في رمسه الذي أعد له تحت اطباق الثرى ؟

اذا التمسنا له عذراً لجهله اللغة الهيروغليفية واستعانته بالمسيو (ماسبيرو) وكان وقتئذ مدرساً في كلية فرنسا بباريس في ترجمة ما كان يصادفه من الاساطير البربائية والهيروغليفية المنقوشة على الآثار فلا يعدم أن يتخيل خيالا شريفاً أو يستعين

بالملخصات التي وضعها بعض المؤرخين في ذاك الوقت مثل شامبوليون فيجاك وأخيه شامبوليون الصغير وهو أول من فك رموز اللغة الهيروغليفية

ان فكرنا فى عمله هذا عزوناه الى أحد أمرين اما سوء القصد واما الغفلة المتناهية وغلظة الذوق وكلاهما لا يغتفران لرجل مثل هذا اسندت اليه وظيفة فخمة فنية ومنح اسمى الالقاب والمرتبات

ولا ينسى المصريون بل العالم المتمدين اجمع هذه النقطة السوداء التى شابت تاريخ هذا الرجل بل سودته لان شهرة موسيقي الرواية تضمن لها البقاء أبدالآباد ولا يزال هذا التذكار الممقوت خالدا خلال الدهور يمثل المصرى القديم أقبح تمثيل ظلماً وعدواناً وهو مثال الشرف والشمم ومكارم الاخلاق وأول من تمدين على ظهر الارض ومن استنار بنور عرفانه المشرقان وهذه آثاره باقية ناطقة بجليل أعماله ومجيد فعاله

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

كيف نكتب

نهضت أمتنا نهضة تحمد عليها في اللغة وابتدأت شبيبتنا ان تأنس في دراستها لذة واعجابا وسبيلا حسنة للمفاخرة بلغة كانت سبباً في مجد اسلافهم وعلو شأنهم وبعد صيتهم وتبارى من شبابنا مئات في النثر والنظم والتأليف والترجمة .

ولكننا لو بحثنا في هذا الجم الغفير عن المجيدين منهم لم نجد الا عدداً قليلا فى كل فن من الفنون السالفة ولو قارنا بينهم وبين اواسط الامم الراقية لرجحت كفة الاخيرين

ضلت ناشئتنا في ديجور الجهل باللغة وظلت تنشد نورا ينتشلها من تيهها فلم تجد

غير نور ضئيل يحمله أستاذ المدرسة فانبعثت في قلوبهم روح الامل ولكن خاب ظنهم إذ رأوا أن هذا النبراس الضعيف لا يكشف أمامهم الظلام ولا يهديهم محجة الصواب . إن استاذهم نفسه لفي حاجة الى مرشد وإنا نلتمس لتلاميذه العذر مادامو تحت سيطرته ولكنا نطالبهم بعد اتمام دراستهم أن يتفرغوا للغة بنظام وترتيب مفيد حتى يحرزوا قسطاً وافراً منها يرفع قدرهم وتعود آثاره على بلادهم بالفائدة الجزيلة . ان الامم لاتحيا إلا بلغتها والتاريخ أعظم شاهد فقد تشتتت أمم عديدة فرطت في لغتها وفقدت شخصيتها وتفرقت كلمتها ثم تمزقت كل ممزق واحتست كؤوس الذل والهوان

اننا لا نكاد نجد في شعرائنا وكتابنا من بلغ الاجادة وخلا من العيوب وداء حب الشهرة الكاذبة . استفحل هذا الداء بالاخص في الادعياء والمتوسطين في العلم واصبح الفرد منهم يقرأ فاضح نقده ويعلم انه مضغة في الافواه واضحوكة في كل ناد ومثال للسخرية في كل مجلس ولا يقلع عن غيه أو يحمر وجهه خجلا . يطبع البعض منهم كل بضعة شهور كتابا وينفق عليه بسخاء حتى اصبح بعد البعض عشرات من المؤلفات وضايقوا ارباب المكاتب اذ لم يتركوا فيها فراغاً لجليل الكتب ولم ينتفع منها مؤلفوها ولا بائعوها ولله در المؤلف فانه لم يشعر بسأم الكتبي ولم يحزن على ماله الضائع ولم يشعر بما سببه له مؤلفه من السخرية والذم وبلغ من الادعياء والمخادعين ان يطبع أحدهم الفاً من كتابه ويعمل لكل مائة نسخة غلافا فيكتب على المائة الاولى الطبعة الاولى وهكذا الى المائة العاشرة فيكتب عليها الطبعة العاشرة ليغرر بصغار التلاميذ الذين هم تحت هيمنته ومن اشتروا كتابه خشية غضبه ولقد تمثل بسخافته أحد الادباء في مقالة « خداع العناوين » واني أسرد للقراء نادرة حقيقية لذاك العلامة مؤلف هذا الكتاب تعشهم وتذهب مايصيبهم من الملل من قراءة هذا الموضوع الطويل . كتب هذا النابغة تقريظا لنفسه وجعله بشكل خطاب مرسل اليه ولم يدع معنى في المديح ولا لفظا للتقريظ

حتى أودعه فيه وكال لنفسه من ضخم الالقاب ماسولت له به نفسه ثم أمضى الرسالة باسم مستعار وهرول الى إحدى الجرائد التي احتجبت لتنشر له هذا التقريظ فتقاسم الموظف المنوط بالاعلانات عاملان شرف الضمير والخوف من أفلات أجر عظيم وصمم نابغتنا على نشر تقريظه بشكله دون أقل تغيير فاقسم له حتى اطمأن فؤاده ونقده الاجر وبر مأمور الجريدة بقسمه وأراح ضميره من التبكيت والوخز ونشر الرساله حرفاً حرفاً ووضع لها عنواناً شائقاً بليغاً لايزيد على كلمتين أظهرتا خباياها وهما « اعلان مأجور »

ان أنعمنا النظر فى قريض شعرائنا وجدنا فيه عيوباً كثيرة ولم نر غير أبيات قليلة في القصيدة تعد من الشعر الجيد . نرى التكلف والصناعة ظاهرين مجسمين والصوغ ضعيفاً والتركيب غير متين يكاد شعرهم يكون خلواً من جليل الابتكار يسطون على المعاني القديمة من أطرافها أو يجعلون عاليها سافلها لايستملون خيالهم وشعورهم ولا يعرفون ان يصوروا مايقع تحت أعينهم تصويراً متقناً فان عبروا عن معنى لايحتاج الى أكثر من شطر نظموه فى بيتين أو أكثر ولو وفقوا لكتابته في أقل من بيت أضافوا جملة لاتمام البيت والقافية بمثابة لفظ لامعنى له . نرى القصيدة مفككة السياق غير مرتبة المعانى كانها ثوب خلق مرقع بمختلف الالوان وان بحثنا عن سبب وقوعهم فى هذا العيب الشائن وجدناه راجعاً الى كونهم ينظمون القصيدة دون ترتيب كحاطب ليل ويضعون أمامهم قصيدة قديمة من البحر والقافية التي يريدونهما وكلما نظموا بيتاً وفقوا له قافية من قوافي هاته القصيدة وبعد اتمام العدد المرغوب يرتبون القصيدة ويالها من قصيدة كالحلقة المفرغة لايدري أين طرفاها . وكيف ينتظرون من قريض مثل هذا أن يكون فيه خيال وشعور وفكرة مفصلة مرتبة وصوغ متين .

نرى الشباب منا حينما يميل الى الشعر ويبتدىء في معالجته يقرأ دواوين البهاء زهير وابن معتوق والخفاجي والشبراوي وابن الفارض وامثالهم وهم ابعد عن الشعر بعد الارض عن السماء ليسوا الا وزانين . يتركون الشعر الجاهلي وفيه آيات

البلاغة البينات الساحرات وعنوان الفصاحة ونموذج القريض والتراكيب العربية الصحيحة ولا تشوبه كلفة ولا تظهر عليه صناعة ومثال لجوامع الكلم كان حروفه من نار وكلماته من سحر تستفز الهمم الخامدة وتحمس القلوب الجامدة وترقق الاكباد الغليظة . وقد مني نثرنا العصري بادواء تفوق ادواء الشعر وأصبح الكاتب يحشو الصحيفة تلو الصحيفة بلغط باطل مزوق بسجعات باردة سخيفة ويحليه بسجوف من المحسنات البديعية توارى عجره وبجره في اعين السذج . يضيع الكاتب من هؤلاء وقته الثمين ويقطع متواصل فكره في البحث والتنقيب عن سجعات تافهة يغل نفسه بقيودها ويسد بها المسالك أمام نفحات خياله . يطارد السجع في بلدنا هذا الانسان من المهد الى اللحد فكانت مرضعه تنومه وتداعبه بالسجعات قائلة له « يابت ياللي فوق السطوح قولي لي أجي ولا اروح ، ياللي ماراح باسوس وبو الغيط ياحلاوه على السقيط » يسمع الراقي يسجع ولا سجع الكهان قائلا « يا ملح يا مليح يا جوهر يافصيح، بخور الفراخ، يمنع الدواخ وبخور الجاموس ، يمنع الكابوس» يسمع الاطفال اقرانه مغنين في رمضان بمختلف الاغاني المسجعة كقولهم « احدفوا العاده لبه وقلاده » الخ فلا ينقطع عن أذنيه رنين السجعات انى سار ويجد في نفسه منذ صغره ميلا شديداً الى التسجيع يشب معه ويسري في دمه وعروقه .

ان القينا نظره في انشاء اعظم كتابنا وجدنا انه لا يستطيع تجنب اللغط والثرثرة ويرتب فكرته ويتخيل الخيال الفخم الراقي ويصوغ القول صوغا عربياً بليغا ويراعي انسجام الجمل ووزنها ويحسن اختيار الالفاظ ويترك السجع الا ما جاء عفوا ويستملى شعوره وخياله ويعود نفسه دقة الملاحظة اذ عليها المعول في تصوير الاشياء تصويراً دقيقا وبها يكون الاستدلال والحكم صادقين وان يضرب في اللغة العربية بسهم وافر ملما بطرف صغير من كل علم مطلعا على نظم العرب ونثرهم

ينقصنا معشر المصريين الذوق السليم وهو ملاك الانشاء وروح البيان ولا يتأتى نيله الا بالتهذيب الصحيح وترقية الفكر بالعلوم الفلسفية كما ان للفنون الجميلة

نصيباً وافراً فى تقويم الاذواق فان هذبت الموسيقي اسماعنا عرفنا الشعر المكسور دون ان نعلم شيئا من العروض وميزنا رنة القافية وانتقينا اجمل الابحر وزنا وان احرزنا قسطا وافراً من التصوير فهمنا معنى الجمال فى كل شيء ولم يخطيء تصويرنا الفكري وقويت فينا الملاحظة الدقيقة وصدق استدلالنا وحكمنا

اننا نسأم من قراءة الابحاث العقلية والفلسفية ولا نود أن نجهد فكرنا أقل اجهاد وبينا نرى الكتب الفلسفية في كساد نرى الروايات العديمة الفائدة في رواج ولا تتعدى مطالعتنا الكتب الادبية السهلة . سرحت ناظري يمنة ويسرة على أجد ثانياً لذاك الاستاذ النابغة الذي تفتخر به البلاد في الكتابة فلم أعثر على أحد يمائله في فخامة الموضوع وحسن الصوغ وجمال التصويروشدة التأثيروغزارة المعاني مع قلة الالفاظ . يكتب جملة قصيرة ويضمنها من الاجتماعيات أحسنها ومن الحكم أفخمها ومن العواطف أشرفها ومن الخيال رائعه ومن الشعر المنثور بدائعه يكتب والصدق رائده والاخلاص مذهبه والتواضع والنفور من حيث الشهرة دينه ولولا وثوقي من ذلك لنشرت اسمه .

انني احب الصراحة وأقول الحق ولو كان مراً عند من تكتنفه العزة أو الشهرة الكاذبة وانصح لاكبر كاتب أن ينحو نحوه ويتوخى اسلوبه الذي جمع كل المحاسن التى سردناها وكان لا يزال يمضي بحرف واحد (م) لشدة تواضعه

ان القارىء ليسلم معي بانه لا يوجد في الدنيا من هو اضعف عقلا من عجوز شمطاء منفردة فى بادية قفراء فكيف يظن الفرد انه اكتب قومه اذا كان دون هذه العجوز مقدرة فى التعبير .

مر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بالبادية فاصابهم الظمأ فلم يجدوا غير بيت حقير من الشعر به عجوز تسمى أم معبد فاستقوها فلم يجدوا عندها ماء وطلبوا أن تسمح لهم بحليب عنزها فقالت دونكم العنز فاحلبوها ان كان بها لبن وقد جف لبنها من الكبر فمسح النبي صلى الله عليه وسلم ضرعها بيده فدر لبنها

وشرب هو وأصحابه فتفرست فيه العجوز ووصفته وصفاً دقيقاً بليغاً اذ قالت رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، ابلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه تجلة ، ولم تزر به صقلة ، وسيما قسيما فى عينيه دعج وفى اشفاره وطف وفى صوته صحل وفى عنقه سطع وفى لحيته كثاثة احور اكحل ازج اقرن ان ضحك فعليه الوقار وان تكلم سما وعلاه البهاء فهو اجمل الناس وابهاه من بعيد واحلاه واحسنه من قريب حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر كان منطقه خرزات نظم يتحدرن وربعه لا تشنأه من طول ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو انضر الثلاثة منظرا واحسنهم قداً له رفقاء يحفون به ان قال انصتوا لقوله وان أمر تبادروا الى أمره محفود محشود لا عابس ولا مفند . ولو تعمنا فى هذه الجملة لوجدناها آية في البلاغة وحسن الصوغ وجزالة المعاني ورقة الوصف وقد جمعت ثماني وثلاثين صفة منها خمسة وعشرون لوجهه وقامته والباقي لشمائله . واختم قولي بابداء شعورى واعجابي نحو فئة عظيمة من اخواننا الاقباط تتبارى في المنظوم والمنثور بزيد عددهم يوما فيوما واني اشكر لسعادة الاستاذ وهبي بك الذى بث فيهم الروح وأحسن تهذيبهم وعرفهم بان لغتهم هي التي يتخاطبون بها فتنافسوا في تحصيلها تنافسا يغبطون عليه ويعود عليهم بالثناء الجميل ؟

(تجلة) ضخم البطن . (صقلة) دقة ونحول . (صحل) حدة الصوت مع بحح . (محفود) الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته . (محشود) أي ان أصحابه يخدمونه ويجتمعون اليه . (تقتحمه) تتجاوز الى غيره احتقارا . (مفند) لا فائدة من كلامه لكبر اصابة (ازج) دقيق اطراف الحاجبين

تصوير العواطف والوجدان

مافتىء كثير من الكتاب والشعراء يعنون بالاسلوب واختيار الالفاظ وسرد المترادفات دون أن يهتموا بالتعبير عما يجول فى نفوسهم فتراهم لايستطيعون أن يصوروا حالاتهم النفسية تصويراً صادقاً يجسم لك ماتضطرب به عواطفهم ويجيش فى نفوسهم من عنيف العواطف التي تتملك شعور القارىء وتهز أعصابه حتى لايحس بما حوله

مثل الانشاء الوجداني كمثل غانية فتانة كفاها جمالها مؤنة الحلى والحلل والتزويق وان أعوزته متانة الاسلوب وحسن اختيار الالفاظ فهو بحالته هذه أفضل من غيره المتمنق الاجوف

ولقد حداني الى الخوض فى هذا الموضوع قطعتان تعدان بحق با كورة المثل العليا وبشائر النهضة المباركة والقدوة الحسنة التى يسترشد بها للوصول الى الكمال أولاها «بيت الابرة» للاستاذ الجليل والكاتب الوجداني القدير الدكتور عبد الوهاب عزام والثانية «قصة في رسالة» للكاتبة الفاضلة «فتاه الفرات»

أخذ كاتبنا المفضال مجلسه في مكتبه فى احدى الليالي المباركة وقد أسدل الليل سكونه وحلق طيف الشعر في غرفته وتجلت له البصيرة فهبت نفسه ثائرة تملي عليه ماخط في أعماق فؤاده بلسان فصيح فتن به طيفه المحلق فوق رأسه ثم زاغ بصره في ماحوله علّه يجد موضوعاً يطرز عليه تلك النفحات النادرة فوقع على بيت الابرة فأعجب باخلاصه وشدة أمانته للشمال رغم توالي القرون والدهور لايحيد عنه ولا يتزعزع ولو وجهته بعنف وجهة أخرى . وما فتئت تلك الابرة المباركة مرشدة للانسان فى البر والبحر والهواء. ثم عطف على ابرة مماثلة بين جوانح الانسان ترشده اذا ضل وتهديه اذا غوى الا هم اذا استثنينا من في قلوبهم مرض وعلى أبصارهم غشاوة فقد حاولت أن تهذبهم فما وجدت لهم الى الهدى سبيلا

ولا تأخذنكم العزة أو تعروكم غضاضة أن تأخذوا أدبكم من فتاة فان كاتب هذه السطور الضعيف يعترف أول الناس بانه لا يستطيع أن يدرك شأوها في هذا المضمار ولو أسعدتني يوماً تلك النفحات لما استطعت أن أكبح جماح الزهو والخيلاء.

ولقد خالجني الشك بعد قراءة هذه الرسالة في الامضاء فان عبارتها تنم عن لهجة فتاة النيل لا فتاة الفرات ويظهر أنها أمضت هذه الامضاء تغاليا في الاختفاء وتضليلا القارىء . قصت علينا الكاتبة حادثتها باسلوب فني لا بجاريها فيها مجار وصورت حالاتها النفسية وعواطف جارها الملتهبة تصويراً دقيقاً صادقاً والفضل في ذلك لجرأتها البريئة وصراحتها الساذجة فأخذت ترخي لنفسها العنان وتستسلم لاهوائها فتتبع خطواتها الضمير الحي وأخذ يناضل مع هذه النزعات الثائرة حتى تغلب عليها وانتصر سلطان العقل الراجح والضمير الحي على الامارة بالسوء ثم هدت جارها الى الصراط السوي وردته الى عشه حيث تنتظره السعادة وشفت فؤاده من مرض النفور من أولاده وعدم الاهتمام بزوجه الوديعة الصابرة وانتهت القصة بدرس قيم في الاخلاق سادت فيه الفضيلة على الرذيلة

الف ليلة وليلة

بحث تاريخي ونقد وتحليل

لا جدال في ان هذا الكتاب يعد أول وأعظم سفر حوى القصص والحكايات الفنية في الشرق والغرب . ولقد عنى به الغربيون وترجموه الى أغلب لغاتهم وما فتئوا يعتبرونه كنزا عظيما يستنبطون منه روايات قصصية وتمثيلية وغنائية وسينماتوغرافية .

لم يظهر لغاية عصرنا هذا مؤلف هذا الكتاب ولا تاريخ وضعه بالضبط ،

ولم يحاول العلماء المستشرقون البحث عن منشئه الا في القرن التاسع عشر . وأول من طرق هذا البحث المستشرق الفرنسي الشهير (سلفستر دوساسي) في (مجلة العلماء) سنة ١٨١٧ ، ثم أعقبه ببحث آخر سنة ١٨٢٩ ثم ثالث سنة ١٨٣٣

ولم يكتف بانكار العناصر الهندية والفارسية فيه ، بل تغالي في غلوائه حتى عد خبر الف ليلة الوارد في مروج الذهب المسعودي من الاخبار المشكوك فيها

قال المسعودي في صفحة ٩٠ جزء رابع طبعة المطبعة الاميرية بباريس

« مثل كتاب : هزار افسانه : وتفسير ذلك من الفارسية الى العربية ، ألف خرافة ، والخرافة بالفارسية يقال لها افسانه ، والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شهر زاد ودينار زاد ومثل كتاب فرزه وسماس وما فيه من اخبار ملوك الهند والوزراء ومثل كتاب السندباد وغيرها »

وقد خالف المسيو هامر بورجستال المسيو سلفستر دوساسي وأكد صحة قول المسعودي ونشر بحثاً مستفيضا في (المجلة الاسيوية) سنة ١٩١٨

ولقد ظن المستر (ويليام لين) الذي ترجم قسما من الف ليلة أن الكتاب كله تأليف شخص واحد ومنشؤه في المدة الواقعة بين سنة ١٤٧٥ وسنة ١٥٢٥ وذكر هذه الفكرة في المقدمة التي وضعها لترجمته سنة ١٨٣٩ — ١٨٤١

وفي سنة ١٨٨٦ عاد المستشرق الالماني (جوبي) الى هذا البحث مستشهداً بما جاء في كتاب فهرست ابن النديم الذي فصل الخبر تفصيلا لا يجعل للشك مجالا

« قال محمد بن اسحق أول من صنف الخرافات وجعل لها كتابا اودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان الفرس الاول ، ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع في أيام ملوك الساسانية ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونقحوه وصنعوا في معناه مايشبهه . فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار افسانه

ومعناه الف خرافة . وكان السبب في ذلك أن ملكا من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها شهر زاد فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل مما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة وهو مع ذلك يطؤها الى ان رزقت منه ولداً أظهرته وأوقفته على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك فهرمانة يقال لها دينار زاد فكانت موافقة لها على ذلك وقد قيل ان هذا الكتاب الف لجاني ابنة بهمن وجاءوا فيه بخبر غير هذا .

قال محمد بن اسحق والصحيح ، ان شاء الله ان أول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لايريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب هزار افسانه ويحتوى على ألف ليلة وعلى دون المائتي سمر لان السمر ربما حدث به عدة ليال وقد رأيته بتمامه دفعات وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث .

قال محمد بن اسحق ابتدأ عبد الله محمد بن عيسى الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم وكل جزء قائم بذاته لايعلق بغيره واحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما يحلو بنفسه وكان فاضلا فاجتمع له أربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تنميقه ألف سمر ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي. وكان قبل ذلك ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل ابن هارون وعلى بن داود كاتب زبيدة وغيرهم »

وقد قرأت في آخر كتاب ابن النديم انه فرغ من كتابته في شعبان سنة ٣٧٧

وهذا مما يدلنا على أن الف ليلة كان معروفاً قبل الف سنة ولو كان المسيو سلفستر دوساسي ممن يقدرون قيمة الكتب القيمة لما فاته الاطلاع على هذا الكتاب الجليل ولما تورط فى هذا الشك المخجل.

ثم جارى (مولر) المسيو (جوبي) فى هذه الفكرة وكتب بدوره بحثاً طليا عن الف ليلة

مخطوطات الف ليلة الموجودة الآن ، كما حققها الاستاذ (بروكلمان) ثلاثة أنواع أحدها أسيوي وهو أقدمها وناقص ويشمل الجزء الاول من المجموعة والاثنان الآخران مصريان تامان ، ولكن تاريخهما أحدث من الاول والبون شاسع بين الاسيوية والمصريتين

ومصر ، لسوء حظها ، مجردة من مخطوطات الف ليلة ولا يوجد شيء منها فى دار الكتب . ومن أغرب الغرائب أن النسخة المخطوطة التي طبعت منها الطبعة الاولى بالمطبعة الاميرية سنة ١٢٥٠ لا يوجد لها أثر .

طبع الف ليلة عدة طبعات فى مصر وأوروبا والهند وأهم الطبعات المصرية الطبعة الاولى الاميرية سنة ١٢٥٠ هجرية فى عهد الخديو محمد علي باشا فى مجلدين من القطع الكبير ثم أعيد طبعه فى نفس المطبعة فى أربعة مجلدات والطبعتان متفقتان بالحرف الواحد ، وقد طبع طبعة أزهرية بالمطبعة العثمانية عدة طبعات وكلها منقولة عن الطبعة الاميرية ومطابقة لها .

والطبعة الهندية مطبوعة سنة ١٨٣٩ وتولى طبعها وتصحيحها المستر (وليم مكناتن) سكرتير انجلترا فى الهند وهي منقولة من نسخة مخطوطة كتبت بمصر أحضرها الميجر (تورنر مكان) وهو الذي طبع الشاهنامة للشاعر الفارسي الشهير الفردوسى . وهذه النسخة مطابقة تقريباً للطبعات المصرية ولا تختلف إلا فى بعض نقط في الانشاء وهي في أربعة مجلدات

والطبعة الالمانية مضى عليها أكثر من قرن اذ طبعت في سنة ١٨٢٥ ببرسلاد وتولي

طبعها وتصحيحها (مكسيميليان هابخت) مدرس اللغة العربية بالمدرسة الملكية ببرسلاو وهي في اثنى عشر جزءاً ومغايرة للطبعات المصرية والهندية وفيها نحو الثلث من قصص الف ليلة والثلثان الباقيان قصص غريبة لا توجد في الطبعات الاخرى .

وهذه الطبعة منقولة عن نسخة مخطوطة في عشرة أجزاء مؤرخة سنة ١٧٣١ واحضرها للطابع احد اهالي تونس المسمى م نجار ، وقد سبق ان تقابلا في باريس فأوصاه على نسخة من مخطوطات الف ليلة فعثر على تلك النسخة حين عودته الى تونس .

ومن النسخ المغايرة النسخه التي ترجم عنها الى الفرنسية (جلان) وهي تخالف الجميع ولا سيما الجزء الثالث وهو الاخير به قصص غريبة لا وجود لها في الطبعات الاخرى نذكر منها علاء الدين والمصباح المسحور وقصة علي بابا والاربعين لصاً وقد رآهما أغلب القراء في السينماتوغراف

ولقد اجمع أغلب المستشرقين على أن طبعة بولاق هي أصح وأدق من كل ما سردناه

واشهر التراجم ثلاث ترجمة (جلان) سنة ١٧١٥ وقد مضى عليها اكثر من قرنين وهي رشيقة الانشاء ولكنها لم يراع فيها المترجم الدقة والامانة وتصرف فيها بكل حرية

وقد افتتح المسيو (سلفستردو ساسى هذه الترجمة بمقدمة عن الف ليلة ومنشئه ولكنه لم يخبرنا هو ولا المترجم عن منشأ المخطوط الذي ترجم عنه .

وترجمة (الكابتن بورتون) الانجليزية وهي مثال للدقة والتحقيق ولجهلي اللغة الانجليزية لم أكلف نفسي البحث عن نسخة منها لاقارن بينها وبين النسخ الاخرى ولا أدري ان كان أصلها مماثلا للاصل الذى ترجم منه (جلان) أم لا ؟

ولقد ترجم الدكتور ماردروس المصري مولداً ونشأة والمستوطن بباريس

كتاب الف ليلة ترجمة جمعت بين دفتيها الدقة والبلاغة سنة ١٩٠٠ وهي تقع فى ستة عشر مجلداً . ثم طبعت طبعة ثانية في ثمانية مجلدات كبيرة مجلدة تجليداً فنياً ومحلاة بصور ملونة تمثل الصور المزدان بها بعض المخطوطات الهندية والفارسية الشهيرة وقد اشترك في هاتين الطبعتين مكتبتا «لوفاسور» و«فاسكيل» بباريس

ولقد ترجم المسيو ماردورس أغلب سور القرآن ترجمت سحبت ذيل النسيان على جميع التراجم القديمة وطبعتها مكتبة « فاسكيل » السالفة .

ولقد نقل المسيو ماردروس ترجمته عن طبعة بولاق وقال بدوره انها أضبط ماوجد من نسخ الف ليلة

نريد أن ننتقل بالقاريء الى نظرة نحلل فيها الف ليلة علنا نستنبط من بين سطوره شيئاً يفيدنا فى هذا البحث العويص ، وسيكون مدار تحليلنا الموضوع من الوجهة الفنية والانشاء وقسية الكاتب وجنسيته ، وهل هو فرد أو أفراد ، والعصر الذي وضعت فيه الترجمة التى بين أيدينا اليوم .

لا مراء فى أن الكاتب كان خصب الخيال غزير المادة ولقد أجاد في وضع الاساس على شكل فني ظريف وهو خبر شهر زاد مع شهريار وتفننها في سرد لذيذ القصص والحكايات ووقوفها كل ليلة عند نقطة من الحديث هامة حتى استبقاها الملك وقد سبق ذكر ذلك فى موضعه

فالمجموع عظيم ولكن التفاصيل فيها عيوب جمة منها الاسراف والمغالاة فى المبالغة كقوله ان الرخ يحجب الشمس حينما يطير وبيضته أعظم من القبة ، وقوله عن اغلب ابناء الملوك فما أتم حوله الخامس عشر حتى صار فارساً صنديداً لا يلبث امامه الفرسان الاشداء وكوصفه لقصور الجن بأنها من الذهب والفضة والياقوت والزمرد وكزواج أشخاصه ببنات الجن وظهورهن بين الناس وكقوله أن سيف الملوك لما سافر أخذ معه أربعين مركباً وعشرين الف مملوك اذ لا يعقل أن أربعين مركباً في العصور القديمه تكفى لحمل الامتعة والمئونة وعشرين الف مملوك ولا يعقل

وجود جيش جرار من المماليك في أي بلاط ! وسرد هذا الخبر في حد نفسه لايبهر القارىء ولا يدهشه بل يضحكه سخرية

ويلاحظ القارىء أن طريقته فى سرد الحوادث مفككة الاوصال لا يربطها ترتيب فى الزمان ولا فى المكان فتراه فى قصة الملك شهرمان وولده قمر الزمان وحفيديه الاسعد والامجد ان هذين الغلامين لما أمر والدهما وزيره بقتلهما عقب اتهام والدة كل منهما لابن ضرتها بانه راودها ورفض الوزير قتلهما وتركهما ليهربا وسفرهما من بلد لآخر دون أن يعلم ابوهما وجدهما من أمرهما شيئاً

ولما اراد ان يختم هذه القصة الطويلة حضر قمر الزمان وعسكره وبعد لحظة حضرت الملكة مرجانة وجيشها وبعد آونة حضر الملك الغيور صهره وجنوده ثم تلاه الملك شهرمان وعساكره

حضر الجميع في وقت واحد من أقطار مختلفة متنائية عن بعضها ومن غير سابقة علم بهذا المكان .

ومن الحوادث المنكرة التي لا يقبلها العقل هيام حياة النفوس وبدور بابني زوجهما . ولو اقتصر على واحدة لقلنا شذوذ محتمل الوقوع وهذا مما يدل على تجرده من كل ذوق سليم .

ومما ينتقد عليه تشابه بعض القصص ببعضها وتكرار الحوادث فيها مثل قصص حسن البصري وسيف الملوك وحاسب كريم الدين إذ نرى في كل منها أن بطل القصة لم يسمع النصح وفتح باب القصر الذى حذر من فتحه ثم رأى البستان الجميل وبركة الماء والطيور التى حطت في البستان وخلعت ريشها وظهرت منه فتيات فاتنات وهيام كل بطل بأجمل الفتيات وهن من بنات ملوك الجن ومواطنهن وراء جبال قاف ومجازفة المحبين باقتحام الاهوال والسير بين طوائف الجن المختلفة وخبر اليهودي الذى كان يضع الحسن البصري وسيف الملوك في جلد بغل ويخيط عليه ثم يأتي الرخ فيحمله ويضعه في قمة جبل الماس ثم يشق الجلد بسكين ويخرج منه

ويقذف الماس لليهودى وغير ذلك مما هو مكرر بنصه في القصص الثلاث .

ومن هناته ومستهجناته وصفه دخول ابطال قصصه بزوجاتهم بشكل فاحش مخجل كهراء الحشاشين في اقذر المواخير

ومن أقبح وأبرد حكاياته اثنتان بجانب بعضهما احداهما امرأة ولعت بقرد والثانية أحبت دبًا وهما من الخيال السمج الوقح ولولا ضيق المقام لاتينا بشيء كثير من هذه الملاحظات التي لا تخفى على كل من له شيء من الذوق في الفن القصصى .

انشاء الف ليلة غث حقير وفيه جانب عظيم من التعبيرات والالفاظ العامية والسجعات الباردة التي يرصها رصا في كل موضع بالحرف الواحد وهي تكاد تماثل سجعات (صندوق الدنيا) وكذلك شعره فان أغلبه من الشعر الموزون الخلى من المعنى والجمال وسنعود اليه حينما نصور نفسية الكاتب وشخصيته

ان الف ليلة اصله فارسى و كان صغير الحجم لا يشمل غير القسم الفارسى والهندى والصيني لان الاقسام الاخرى العربية والمصرية وغيرها اضيفت متأخرة وهذا رأي كثير من المستشرقين ويثبته تاريخ الحوادث

ولقد ورد في القسم المصري ذكر الفرمان السلطاني وأبي طبق والجامكية ومصر القديمة وبولاق وباب الشعرية وباب الخرق (الذي أبدل الآن بالخلق) وباب الفتوح وهذا مما يدل على أن القسم المصرى حديث لا يتعدى زمن المماليك

سلمنا بان واضع هذا الكتاب افراد وان القسم الاول وضع قبل الف سنة بكثير لان ابن النديم حينما تكلم عنه منذ الف سنة لم يقف على اسم واضعه ولا على التاريخ الذى كتب فيه ، وهذا مما يدل ايضًا على انه كتب قبل زمن ابن النديم بزمن بعيد . فالقارىء يدهش حينما يرى ان الكتاب من دفته الى دفته مكتوب بقلم واحد وأسلوب واحد وان القسم القديم نفسه محشو بشعر سخيف حديث العهد .

ولكنني ارجح ان الترجمة وضحت في زمن المماليك واشترك فيها اثنان تركي يجيد الفارسية وضعيف في العربية وكانت مهمته الترجمة : والثاني مصري فقيه ومهمته التنميق والتزويق بتلك السجعات السخيفة والاشعار المرذولة وتصنيف القسم العربي الشامل لاخبار الرشيد وغيره والقسم المصري

وغير خاف أن عصر المماليك كانت تتخبط فيه مصر في دياجير الجهل والانحطاط وفساد الاخلاق،وربما كان انشاء الف ليلة يعد في زمانه من رائع بيان العصر ولا يبعد أيضاً أن واضعه كان يعتبره قومه من الذين يشار اليهم بالبنان في ميدان التنظيم والنثير .

ويظهر أن هذا الفقيه درس في الازهر بضع سنين ثم انقطع للادب وتفرغ للكتابة والشعر وقرأ بعض الكتب الغثة المسجعة والدواوين السخيفة كالبهاء زهير والوأواء الدمشقي وابن سهل ومن شاكلهم وحفظ العروض لتعليم الوزن وقرأ جانباً من الكتب الخرافية المرذولة مثل خريدة العجائب وبدائع الزهور وعدداً من كتب المواعظ والحكم الدينية السخيفة التى يبرأ منها الدين والتي يحفظها الشباحون والطفيليون ليتشدقوا بها في مجالس العامة

وقد استدللت على أنه فقيه بل من فقهاء المقابر من محاوراته العلمية في قصة تودد الجارية وهي من أرذل ماسمع .

سألها العلماء : ماربك وما نبيك وما أمامك وما قبلتك فأجابت الله ربي ومحمد (صلعم) نبيي والقرآن أمامي والكعبة قبلتي الخ . ولا يخفى على القارىء أن هذا القول يلقنه فقهاء المقابر للاموات وقت دفنهم . وفي قصص أخرى يقول صلي ركعتي الاستخارة وفي قصة علاء الدين أبي الشامات يقول انهم اتخذوه مستحلا لبنت أحد الاغنياء

ومن برودة وسماجته سؤال العلماء لتودد الجارية وهم في حضرة الرشيد اسئلة تماثل ما جاء في رجوع الشيخ الى صباه !

وتلك الكلمة فيها الكفاية للاطلاع على مبلغ معلومات منمق الف ليلة وقد بقي علينا أن نأتي بصورة تمثل نفسيته

هذا الرجل على شاكلة (تارتوف) أو الشيخ متلوف على رأي عثمان بك جلال ، شيخ معربد فاجر مستهتر مجرد من الذوق والادب ومكارم الاخلاق وهو من الفئة الذين يهرولون وراء فتوى كاذبة لرجل طلق امرأته ستين مرة أو عقد زواج جديد مع وجود المرأة على ذمة الزوج الاول ، والذين يتطفلون في المآتم والافراح فيكون واعظاً ان كان المجلس يبحث في الوعظ وشاعراً في الافراح يرص القصيدة ويخطب الخطبة لتهنئة العروسين وتارة في مواخير الحشيش وطوراً في الحانات ينادم ويضحك الشبان المعربدين الوارثين وترى جيوبه محشوة باحقاق العنبر والمنزول يبيعها للمعربدين بعد مايسهب في منافعها وخواصها

كل هذه الصفات تقرأها طي الف ليلة حتى نسخ المنزول تراها في الصحيفة الاولى من قصة علاء الدين ابي الشامات وقبل تركيبها ببضعة سطور تجد حواراً بين والد علاء الدين وزوجه من أقبح ما سمع ، وفيه من أخبار النساء والولدان ما يدل دلالة صريحة على ان هذا الرجل كان حشاشاً كبيراً

ولولا الاطالة لسردت شيئاً كثيراً من المواقف التي تصور هذا الكاتب وما على المستزيد الا ان يطالع الكتاب كله ليري فيه أضعاف أضعاف ماذكرناه واظن أن النسخ الاسيوية القديمة ليست بهذه القحة ولا هذا البرود وتلك السماجة

هذا ما وصل اليه جهد استطاعتي وعسى أن لا يضن الاستاذان الكبيران صاحبا السعادة احمد زكي باشا واحمد تيمور باشا بموافاة القراء بمعلوماتهما عن هذا الكتاب توصلا للحقيقة وخدمة للعلم

رابندرانات تاغور

حاولت أن أجد بين الاحياء صورة تماثل هذا الفيلسوف العظيم والشاعر العبقرى فلم أوفق فشحذت الذاكرة وأرهفت اليراع واستنجدت بطيف الشعر فهمس بعد قليل في أذني : عبثاً تؤمل أن تظفر بأمنيتك بين الاحياء ودونك صورة صادقة خلدها الفن وهي تمثال موسى عليه السلام من صنع المثال العظيم ميكيل أنج

ان كانت عندك أيها القارىء هذه الصورة في دائرة معارف او كتاب في الفن . فافتح كتابك وتأمل معي فيها وانظر الى الهيبة والعظمة اللتين يملكان عليك مشاعرك والعين البراقة والنظرة الحادة المهيبة التي تملى عليك ارادتها دون أن تمتعض أو تستنكف أو يأخذك الزهو والكبرياء وشعره المتدلى على أكتافه ولحيته البيضاء المسترسلة الى صدره كلبد الضياغم

شاهدته حينما زار مصر بالمصادفة في الطريق وهو راكب عربة وقد وقع نظره على دون قصد فراعتنى تلك الطلعة المهيبة والجلال النادر وتلك النظرات الحادة وقد خيل الى انها اخترمت احشائي ووصلت الى سويداء قلبي فقرأت ماخط فيه من سر مكنون وقد تضاءلت أمامي وقتئذ جميع الشخصيات البارزة وأيقنت بعدما قرأت نحو خمسة عشر مجلداً من مؤلفاته التي ترجمت الى الفرنسية أنه عطارد الشعر الذي لايدرك له غبار ، ولا يجاريه فيه مجار .

ومن مزاياه النادرة التي لم يبلغ شأوها غيره من الشعراء الاقدمين والمعاصرين الرقة الفتانه والرشاقه النادرة الساحرة وسلامة الذوق المتناهية والعواطف المتأججة والمعاني العظيمة العميقة التي جمعت بين الشعر والفلسفة فزادت قوة على قوة . وقريضه الخالي من التكلف والذى لايشاهد فيه أثر للصناعة والاجهاد

وحينما ترجم ديوانه « بستاني الحب » الى الفرنسية وظهر فى عالم المطبوعات

أخذت منه نسخة ولم أتمكن من قراءتها فى أول يوم ، وفي الغدانتابنى مغص الكليتين واشتد على حتى جعلنى أئن وأتلوى كالطير المذبوح . ولما سكنت قليلا شدة الالم أخذت هذا الديوان وأنا رافد ولم آت على آخر القصيدة الثانية حتى انتقلت الى عالم آخر ونسيت الالم وتفتحت عيناي واشتدت عضلات جفوني بعد ارتخائها وتنبهت أعصابي بعد خمودها . ولهوت عن كل شيء ولم أقطع هذه اللذة النادرة التى سكنت آلامي بشيء آخر من طعام أو شراب أو دواء وما غربت الشمس حتى أتممت قراءة ما بين دفتى الديوان وأنا مدثر فى فراشى

اذا أمعنا النظر في شعر كبير وهو أحد زعماء الصوفية في الهند في القرن الخامس عشر وجدنا بينه وبين شعر تاجور شبها كبيرا اذ كلاهما يبحث عن الخالق ويتغزل فيه وهذا ما يدلنا على تأثر تاجور من كبير . ولكن الفرق بينهما ان تاجور أرق بكثير من كبير وقصائده أطول ، ومعانيه أعمق وأفخم ، واتماماً للفائدة نسرد كلمة عن كبير وبعض مقطوعات من نظمه لنقارن بينها وبين شعر تاجور

وقد نقل تاجور شعر كبير من البنغالية الى الانجليزية بنفسه وهذا مما يدل على ولعه بقريض هذا الشاعر واعجابه به .

ولد كبير من أبوين مسلمين بمدينة بيناريس حوالي سنة ١٤٤٠ وانضم منذ صغره الى تلاميذ الناسك الهندوكي الشهير راماناندا . وكان هذا الاخير متبحراً فى العلوم الدينية وعاش فى عصر تأثر فيه الشعر الوجداني والفلسفة العميقة بكبار الصوفية من الفرس تأثراً عظيما فى الفكرة الدينية بالهند وقد أمل أن يوفق بين التصوف الاسلامي والبرهمي المتواتر

ويعد كبير من عظماء المصلحين الدينيين وله حزب باق الى الان يبلغ المليون وفضلا عن ذلك فقد بلغ في القريض مكانة لم يسبقه اليها غيره من أسلافه وشعره حافل بجميع أنواع العواطف من أدقها الى أشدها وتعد معانيه من السهل الممتنع الخالى من التعقيد والتكلف

نراه فى نظمه لم يفرق بين العقائد البرهمية والدين الاسلامي ، بل كان قريضه

يتناول الاثنين وكان فضلا عن تصوفه وشهرته في القريض موسيقياً ماهراً

لم ينقطع للتنسك وامانة الجسم والعزلة والتأملات بل كان حائكا يعيش من صناعته . والغريب أن جميع الاساطير أجمعت على أنه كان أمياً رغماً مما بلغه من أعلى شأو فى القريض . وكان متزوجاً ورزق بأولاد وكان يحتقر التنسك والعزلة والزهد والتقشف وتجنب الحب والابتعاد عن السرور والجمال المنتشر فى العالم من الوحدة اللانهائية .

أما من جهة العقيدة فلانستطيع أن نعتبره مسلما ولا هندوكيا لانه كان ملحدا وكان يمقت العقائد الدينية .وجميع الاوساط الدينية كانت تعده رجلاخطيرا. والاله الذي كان يبحث عنه لم يكن في الهياكل ولا في المساجد وكان يعتقد انه موجود بجانب كل من ينشده

كان نفوذ الكهان والبراهمة عظيما فى بيناريس فاضطهدوا كبيرا وقيل انهم أرادوا اغواءه فأرسلوا اليه بغيا حسناء فلم تنل منه نيلا بل هداها حتي تابت وأصبحت طاهرة صالحة

أتى عليه عام ١٥١٨ وهو هرم سقيم ضعيف الذراعين فتوفى فى هذا التاريخ بمدينة مجهر على مقربة من جور اكنور

ومن الاساطير اللذيذة التي قيلت عن وفاته أنه لما مات تخاصم تلاميذه المسلمون والهندوكيون على جثته فأراد الاولون أن يدفنوه وأراد الآخرون أن يحرقوه فظهر لهم كبير وقال . . انزعوا الاكفان وانظروا الى ماتحتها فأطاعوا ووجدوا تحتها باقة من الازهار النضرة فاقتسموها بينهم ودفن المسلمون نصيبهم فى مجهر وأخذ الهندوكيون نصيبهم وأحرقوه فى بيناريس

وها كم خمس مقطوعات من شعر كبير :

— ١ —

أين تبحث عني ياخادمي ؟ أنظر تراني على كثب منك ! لست في الهيكل

ولا فى المسجد ولا في محراب الحرم المكي ولا في مقام آلهة الهند . ما أنا فى المذاهب ولا في الحفلات الدينية ولا في التنسك وتقشفه وزهده

ان كنت تبحث عنى حقاً فستراني قريباً وستأتي الساعة التى تحظي فيها بمقابلتي

ويقول كبير : « أيها الولى ، ان الله هو نفس كل من يتنفس من الاحياء.

— ١١ —

كنت فيما مضى ألعب مع رفاقى ليل نهار ولكن الخوف يساورني الآن

فصر سيدي شاهق يناطح السحاب وقلبي يحقق من الهلع ان حاولت الصعود اليه بيد أنه لاينبغي لي أن أكون هيابا أن أردت التمتع بحبه . يجب أن يرتبط قلبي بأعز حبيب وأن أزيح نقابي وأجمع بين كياني وذاته . وستكون عيناى مقراً لمصابيح الحب

ويقول كبير : «سماع أيتها الحبيبة ، أنه يفهم من يحبه فان لم يضنك حب المحبوب فلا فائدة من تزيين جسمك وتجميل أجفانك بالكحل»

- ١٢ -

خبريني أيتها البجعة عن تاريخك القديم ومن أي البلاد أتيت ؟ لاي شاطيء تطيرين ؟ أين تستريحين أيتها البجعة وعم تبحثين ؟ استيقظي أيتها البجعة فى هذا الصباح وانهضى لتتبعيني . انها لبلاد لايدخلها الشك ولا الحزن والكآبة ولا يتسرب اليها الخوف من المنون . هناك ترى الغاب وقد جلله الربيع بازهاره ويقول عرفه الشذى : « أنا هو » وتحمله ريح الصبا .

وهناك تغوص نحلة القلب فى قاع الزهرة ولا تريد غير هذه المسرة.

- ٢٧ -

ان رحمة سيدي الحق هي التي علمتني ما خفى ولقد تعلمت منه أن أسير بغير قدمين وان انظر بلا عينين وأن اسمع من غير اذنين وأن اشرب بدون شفتين وان أطير بغير جناحين .

وفي البلاد التي لا تنعم بشمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار قد أحببت وتأملت
لقد تذوقت حلاوة الرحيق دون اكل وقد ارتويت بغير ماء
ان السرور المتقاسم لهو أعظم المسرات
أمام من نستطيع أن نعبر عنه ؟
ويقول كبير « سيدي أعظم من العوالم وما أعظم ثروة تلميذه »

- ٣٠ -

في هذه الشجرة طير يرقص في فرح الحياة ولا يستطيع احد ان يعرف مقره أو يعيد مرد أغنيته

هل رأيت موضع الظل الكثيف الذي يسقط من فروع الشجرة المتكاثفة ، فهناك عشه اذ يجيء في المساء ويطير في الصباح واني لا أعرف له كنها ولا يتيسر لاحد أن يفتش عن هذا الطائر الذي يغرد فى نفسي ، وماريشه بملون ولا غير ملون ، وليس له شكل ولا حد ، وهو يستقر في ظلال الحب

أنه ينام فى باطن من لايدركه العقل الدائم الذى لانهاية له ، ولا يعلم أحد متي يطير ولا متى يعود ويقول كبير : « أيها الاخ الصالح الورع ! ان هذا السر عميق فدع الحكماء يبحثون عن مقر هذا الطائر »

لنعد بالقراء الى تاجور والحديث ذو شجون : ولد المترجم فى عام ١٨٦٠ بكلكتا وقد منحه مجمع ستوكهلم العلمي جائزة (نوبل) في الآداب في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣ وقال أن شعره يشمل جميع مطامح النفس . وهو عريق في النسب من أسرة بنغالية تضم كثيراً من عظماء الرجال وقد نال جده الامير « دورا كانات تاجور »شرف المثول أمام الملكة فكتوريا واشتهر والده المهرشي(أي الحكيم) دبندرانات تاجور بانه مفكر ديني

والمترجم نفسه معروف بتأملاته وتصوفه اذ يشاهد كل يوم غارقا مدة ساعتين في بحار عميقة من التأملات وهذا لا يمنعه من تكريس نشاط منتظم لتهذيب كثير من النفوس اذ أسس بمدينة بوليبور بجوار كلكتا مدرسة يديرها في الهواء الطلق

يعد فيها أكثر من مائتي طالب وهو وطني عظيم درس المدنيـة الانكليزية وآدابها ومشهور في انكلترا أكثر منه في فرنسا وقد حضر مؤتمر الاديان بباريس سنة ١٩١٣

عرف الناس هذا الشاعر منذ ربيعه الثامن عشر اذ اخرج لهم رواية تمثيلية موسيقية ثم أعقبها برواية قصصية وقد ذاع شعره في جميع أقطار الهند حتى أصبح بعد زعيم شعراء الهند قاطبة وأصبحوا يؤرخون به عصراً جديداً في الآداب الهندية يسمونه (الرابندراناتي)

وقد برع في الموسيقى كما برع في الشعر وألف ألحاناً يدل شكل نغماتها على تعبيرات عالية ولحن قصائد تلحيناً يدل على غزارة المادة ودقة الشكل وترجم بنفسه ديوانه المسمى (القربان الشعري) من البنغالية الى الانجليزية . وكتب له الشاعر الارلندى (يتس) مقدمة قال فيها «ان بيتاً من قريض رابندرانات لينسى آلام الدنيا»

يعد المترجم من الشعراء المتصوفين ذوي النظم الجلى المعبر عن عنيف العواطف والآلام وما فتىء يتطلب تجلى الخالق ويشعر بوجوده في جميع العالم ولو انه هندوكى صميم لـكنه لا يغفل وهو تمل بنشوة التأملات والخيالات عن الاتصال بالناس وشغفه بالطبيعة

انه يتهلل لجمال الطبيعة وقد جللها النور وكستها أزهار الربيع بشائق حللها ويشجيه تغريد الطير فوق الدوح والخمائل ويبسم لقوس قزح ويفتنه جمال الزهر ويشمله ارجه العبق ويصغي بفرح الى خرير الامواج ومداعبتها للسفن الماخرة وقد عبر عن هذا الشغف في كثير من المواقف كقوله في عرض قريضه « قد دعيت الى عيد الدنيا وبورك لي في حياتي» وهذا مايدل على أنه بعيدعن التشاؤم العظيم الذي اتصف به المفـكرون من الهندوكيين

انه لا يخشي الموت ويرغب في الخلود الذي يجمعه مع الله ولـكنه يحب الحياة وجمال الدنيا

نرى شاعرنا يتهلل فرحا أمام منظر الحياة العامة ولكنه يرى الحياة في العمل والاجهاد ويرى في الموت الدعة والسكون فهو يطمح الى النعيم المقيم ليتفانى في التقرب من الله . اذ يقول :

« لقد تمكنت من الوصول الى ضفاف الابدية التى لا يخفى فيها شيء. اغمس حياتي المجوفة في هذا القاموس ، أغمرها وسط هذا التمام حتى أشعر في ذاك العالم الكامل بتلك الملاطفة التي فقدتها في الحياة الدنيا»

وهذ التمام والكمال بابه الموت الذي لايخشاه تاجور اذ يعتبر ان في المنون تمام الحياة والمسلك الموصل للقاء ربه وان الموت والحياة هما وجها الدنيا فان أحب أحدهما فلم لايحب الآخر . ومن أبلغ ابتكاراته الشائقة السهله قوله .« يئن الطفل حينما تنزع أمه ثديها الايمن من فمه مع أنها لاتلبث أن تناوله الايسر الذى يجد فيه عزاءه وسلوانه»

طرق تاجور أغلب نواحي الادب من فلسفة وشعر وروايات قصصية وتمثيلية وأقاصيص وحكايات وقطع فكاهية وغيرها ولقد اجاد كل الاجادة في كل هذه الانواع

ان أمعنا النظر في روايات تاجور الاولى التى ظهرت من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٩٠ وجدنا فيها تأثراً ظاهراً من الكاتب البنغالي الكبير (بنكيم شندراشاترجي) الذى نشرت كتبه سنة ١٨٦٤

ولكنه تحرر من هذا التأثير في سلسلة الحكايات التي نشرها من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٠ وكان يصور فيها حياة الريفيين والاسر المتوسطة البنغالية .

ثم ظهرت بعد ذلك رواياته الاجتماعية العظيمة :

حزن العيون	سنة ١٩٠٥ — سنة ١٩٠٤
جورا	سنة ١٩١٠ — سنة ١٩٠٨
البيت والعالم	سنة ١٩١٤ — سنة ١٩١٣
الاربعة الاصوات	سنة ١٩١٥ — سنة ١٩١٤

واما كتاباته الفكاهية فلم تترجم لغاية الآن من البنغالية ويعد تاجور أعظم كاتب فكاهي في الهند

وأعظم رواياته واكبرها (جورا) وهي صورة غنية وجريئة اغضبت كثيراً من الاحزاب لتهكمه الشيطاني اللطيف الذى يشوق القارىء لاكتشاف بطل الرواية وزعيم الوطنيين وهو من دم ارلندى وقد التقطته أسرة من الهندوكيين الطيبين .

وتلى هذه الرواية في الشهرة رواية البيت والعالم وهي من حيث البلاغة والعواطف والرقة والرشاقة تقرب من الشعر كثيراً

وقد قال عنه (رومان رولان في عرض كلامه : لقد تفرد مؤلف (البجمة) باختلاج الطبيعة العنيفة الذي يغمر به حديثه فيسمع تحت كلام المحدث الرقيق غناء الروح بدون كلام وهو يختلج تحت الحجاب وما هو إلا موسيقي السكون .

ولنكتف بهذه الكلمة لنعرض للقراء نماذج من ديوانه (القربان الشعرى) و (بستاني الحب) وهما أشهر دواوينه

القربان الشعرى

— ٥ —

أسألك ان تمن علي ان استريح بجانبك لحظة أتم فيها ما شرعت فيه من الاعمال. حرمت من رؤية وجهك الكريم فاصبح فؤادى لا يعرف للراحة معنى ولا أمداً وظل اجتهادى عناء دائماً في مفازة النصب المترامية الاطراف . اقبل الصيف اليوم الى كوتي هو وأنينه وهرول النحل الى الرياض المزهرة ليرتشف ثغور نوارها .

اقبلت ساعة الدعة الهنيئة لانشد معك وجهاً لوجه ولا نذر واكرس لك حياتي في صمت هذا الفراغ العظيم

- ٦ -

أقطف هذه الزهرة الضئيلة وعجل بأخذها لئلا تذبل وتتناثر فوق التراب .

وان لم يكن لها محل في باقتك فشرفها بلمس يدك واجنها فاني اخشى ان لا يتم اليوم قبل أن يخالجني الشك ويفوتني وقت الاهداء .

خذ هذه الزهرة لنفسك وان تكن كامدة اللون حيية العرف ، اقتطفها فقد آن الوقت

- ١٢ -

ان الزمن الذى يتطلبه رحيلى لطويل والطريق بعيدة . لقد خرجت راكبا عجلة اشعة النور الاولى وقطعت رحلتي خلال وحدة الدنيا تاركا أثري فوق نجوم عدة . ان أبعد ظعن هو الذى يقربنى اليك وان ترجيع الصوت وتنويعه هو يوصل الى انسجام الاصوات التام

ويلزم الراحل أن يطرق جميع الابواب قبل أن يصل الى بابك كما ينبغي له أن يضل خلال جميع العوالم الظاهرة ليصل في النهاية الى تابوت العهد

لقد تركت عيني تضلان في بعيد الفجاج قبل أن أقفلهما وأقول :هاأنت هنا وهذا السؤال وذاك الانتظار يذوبان في عبرات الف من الانهار ويغمران الدنيا تحت لجج هذه الحقيقة أنا

- ٢١ -

أما حان الوقت لاطلق عنان سفينتي ؟ تنهار الساعات الدنفة فوق العراء — فواأسفاه !

جاء الربيع بأزهاره ونواره ثم ولى تاركا أزهاراً حقيرة ذابلة بينا أنا منتظر مستبطىء

هاجت الامواج بعيداً عن الضفاف وتساقطت الاوراق المصفرة في الدرب الظليل

ليت شعري ماالذي غاب عنك وتفكر فيه ؟ أما شعرت باختلاج يتخلل الهواء مع اللحن القصي الذى يصعد ثم يهرب وراء الشاطىء الآخر

- ٢٧ -

أيها النور ! أين ذاك النور ؟ نعشت واسعدت بنار الرغبة المتوهجة .

ها هو المصباح ولكنه لا يختلج كالشعلة — اهناك مصيرك يا قلبي ؟ وان المنون لخير لك

ان البؤس يطرق بابك ومهمته أن سيدك يقظ وضرب لك موعداً للحب خلال جنح الظلام

السماء متلبدة بالغمام وما فتىء المطر منهملا ولكنى لا أدري ماذا يجيش في نفسى ولا أدرك له معنى

ان لمعان البرق الفجائي جلب الى عينى ظلاما حالكا وان فؤادي ليبحث وسط هذه الحنادس عن السبيل الموصلة الى الالحان التي تدعوني

أيها النور ! أين ذاك النور ؟ نعشت وسعدت بنار الرغبة المتوهجة

يقصف الرعد وتهب الريح مزمجرة خلال الفضاء والليل معتم (كالاردواز) فلا تترك الساعات تمر في الظلام وأنعش مصباح الحب بحياتك

- ٥٧ -

أيها النور ! أي ضوئي الذي يملا الدنيا يامن هولمثة العيون وهناءة القلوب

يرقص النور وسط حياتي ! أيها المحبوب العزيز ! ان هواي يرن من وقع ضربة النور . تنفتح السماوات وتهب الرياح وجاب ضحك الارض

حلق الفراش فوق خضم النور الذى أحبه وفجر الضوء من رؤوس اللجج زنبقا وياسمينا

أيها النور العزيز ! انقش السحب باصباغك العسجدية لتنتثر منها الجواهر الشائقة

انتشر الفرح من ورقة لاخرى ياهواي وسادت الهناءة العميمة

طغى نهر السماء فغمر ضفافه وظلت أمواج الفرح خارجه

- ٨٢ -

الهي! لا نهاية للزمن الذي بين يديك ولا أحد هناك ليعد دقائقك . تكر

الايام والليالي وتتفتح الاعمار ثم تذبل كالازهار وتعرف أنت كيف تنتظر

تتعاقب قرونك لتشم زهرة ضئيلة من أزهار الحقول ، لا زمن لنا نضيعه اذ ينقصنا الوقت كما انه يلزمنا أن نتحمل المشاق فى سبيل حظوظنا . اننا مساكين ولا يتسنى لنا أن نتأخر

وهكذا يمر الزمن بينا اهجره لجميع الشاكين الذين يريدون أن يستردوه . وحينئذ يبقى محرابك خاليا من القرابين عاطلا

وعند انتهاء النهار تساورني العجلة خشية أن لاتكون الابواب موصدة وفضلا عن هذا اري أن الوقت لم يفتني بعد

البستاني

— ١ —

الخادم — أيتها المليكة رحمة بخادمك

الملكة — لقد انفض الاجتماع وانصرف اتباعي. ولم أتيت في هـذه الساعة المتأخرة ؟

الخادم — تحين ساعتي حينما تمر ساعات الآخرين ، خبريني أي عمل بقي لآخر خدمك

الملكة — ماذا تؤمل بعد فوات الوقت .

الخادم — اجعليني بستانيا لحديقة أزهارك .

الملكة — ما هذا الجنون ؟

الخادم — انني أرفض أي عمل آخر . وسأطرح رماحي وسيوفى فى التراب ، لا ترسليني الى أى بلاط ملكي بعيد . ولا تكلفيني بفتوحات جديدة . بل اجعليني بستانيا لحديقة أزهارك

الملكة — وماذا يكون عملك ؟

الخادم — سيكون عملى قاصراً على أوقات فراغك وسأرعى الكلأ بعنايتي حتى تستمر نضرته فى الدرب الذي تسيرين فيه فى الصباح حيث تتمنى الازهار الموت وتتعطش لان تموت تحت قدميك مباركة القدم التي سحقتها .

وساؤرجحك بين أغصان (السبتبرنا) بينما يطلع القمر مبكراً فى السماء محاولا أن يقبل طيلسانك من خلال أوراق الاشجار

وسأملأ السراج الذي يشتعل بجانب سريرك بالزيت العطر، وسأزين كرسيك بالصندل والزعفران .

الملكة — أى جزاء تبتغي ؟

الخادم — أن تسمحي لي أن أمسك بين يدي بيديك الغضتين المماثلتين لازرار النيلوفر وأن أطوى حول ذراعيك عقود الازهار ، وسأخضب قدميك بعصارة أزهار (الاشوكا) الحمراء وسأقتطف بقبلة ما علق عليهما من الغبار .

الملكة ـ لقد قبلت توسلاتك ياخادمي وستكون بستاني حديقة أزهاري .

منتخبات من البستانى

- ٢ -

أيها الشاعر ! اقترب المساء ، واشتعل رأسك شيباً

أتسمع وأنت غارق فى تأملات عزلتك رسالة ماوراء الوجود ؟

قال الشاعر : هاهو المساء ، انني مصغ : فلربما نادى أحد من القرية رغماً من هذه الساعة المتأخرة

انني ساهر : وعاشقان يبحث أحدهما عن الآخر . فهلايقودهما قلباهما؟ وهلا يتقابل قلبان ضالان لعاشقين في شرخ الشباب ، وان عيونهم البراقة لتنشد وهي متسولة حباً منسجما يقطع السكوت ويتكلم بدلا عنهما

من ينسج لحه غنائهما المؤثر الشجى اذا داومت الجلوس على شاطيء الحياة أشاهد الموت وما وراء الوجود ؟

لقد اختفى نجم المساء الاول . وطفقت نار أتون الاموات تخبو ببطء بعد سعيرها المتوهج على مقربة من الغدير الصامت ، وكان يسمع من فناء المنزل المقفر في ضوء القمر الكامد عواء أبناء آوى ، واذا مر ظاعن وقد ضل عن مأواه ضلالا بعيداً ثم أقبل ليشاهد الليل وينصت وهو منكس الرأس الى نشيد الظامات فمن

يكون هنا ليسر اليه أسرار الحياة اذا أنا أقفلت بابى وأخليت نفسي من كل قيد يربط البشر بعضهم ببعض ؟

لايهمني أن أشتعل الرأس شيباً فانى مازلت فتياً مثل أصغر أهل القرية وهرما مثل أكبر رجل فيها

البعض لهم بسمات بسيطة لطيفة والآخرون تلمع أعينهم من المكر والخبث وهؤلاء لهم عبرات تنفجر في ضوء النهار والآخرون لهم دموع تختفي في الظلمات . جميعهم محتاجون الي وليس عندي من الوقت مايسمح لي بالتأمل في الحياة القادمة

انني في كل سن فلا يهمني أن يشتعل الرأس شيبا

— ٧ —

أماه ، سيمر الامير الشاب ببابنا فكيف أستطيع العمل في هذا الصباح ؟

لم تنظرين الي نظرة الدهش يا أماه ؟

أننى متيقنة أنه لايلتفت الى كوتي ، واعلم أنه سيختفى عن الانظار بعد لمحة عين وستقبل زفرات نايه القصي وحدها لتموت في أذني

سيمر الامير الشاب أمام بابنا وأريد أن البس أفخر ماعندي لهذه اللحظة

أماه ، لقد مر الامير الشاب أمام بابنا وكانت أشعة الشمس تتلألأ فوق مركبته

لقد سقرت ونزعت من جيدى عقد اليافوت ورميته تحت قدميه

لم تنظرين الي ياأماه نظرة الاستغراب ؟

انني أعلم أنه لم يلتقط عقدى وأعرف أنه قد سحق تحت عجلات مركبته بعد ماترك بقعة حمراء فوق التراب ولم يفكر أحد أنه كان هديتى ولا لمن أهدى ولكن الامير الشاب قد مر أمام بابنا وقد نثرت فى طريقه جواهر قلبي

— ١٥ —

أعدو كظبي المسك وقد نال من شذي عطره فظل يجرى فى ظلام الغاب ، وكانت ليلة من ليالي أيار وقد هب النسيم من الجنوب . ضللت الطريق وتهت

وظللت أبحث عما لاأستطيع أن أجده وأعثر على مالا أبحث عنه
وصعدت من قلبي صورة رغائبي فرأيتها ترقص أمام عيني
لقد طار الجمال المتوهج وسولت لي نفسي أن أمسك به ففر وضلات الطريق
انني أبحث عما لاأستطيع أن أجده وأعثر على مالا أبحث عنه

-٢٨-

ان نظرك لحائر حزين يحاول أن يقف على مايدور بخلدى
ان القمر يريد أيضاً أن يخترق اليم
انك تعلمين أسرار حياتي ولم أخف عنك شيئاً ، فلم تجهلين كل شيء ؟
لو كانت حياتي حجراً ثميناً لسحقته مائة قطعة وعملت من هذه القطع عقداً أقلد به جيدك
ولو لم تكن حياتي إلا زهرة صغيرة فانني أقتطفها من ساقها لازين بها شعرك ، ولكنها أيتها الحبيبة قلب وأين توجد أطرافه ؟ انك تجهلين حدود هذه المملكة بيد انك ملكتها
ولو لم يكن قلبي إلا لذة لرأيته يزهر ابتساما سعيداً ولاخترقته فى لحظة
ولو لم يكن إلا ألماً لذاب وتحول الى عبرات رائقة ينعكس فيها بصمت أسراره ولكنه هيام ياحبيبتى العزيزة . ملذاته وأتعابه لاتحد وفقره وغناه دائمان انه لأقرب اليك من حياتك ولكن هيهات أن تعرفيه حق المعرفة .

- ٢٩ -

تكلمي أيتها الحبيبة ! اعيدي الى الكلمات التى تترنمين بها
الليل مظلم وقد غابت النجوم فى السحب والريح تتنهد خلال الاوراق
سأحل شعرى وستغمرني عباءتي الزرقاء بليلها وسأضم رأسك الى صدرى وهناك في هذه العزلة اللطيفة أناجي فؤادك وسأغمض عيني وأنا مصغ دون أن انظر الى وجهك

وحينما ينتهي كلامك نبقى سكوتا في اطمئنان ودعة . والاشجار وحدها تهمس بنجواها في حنادس الظلمات

سيكمد لون الليل وسيولد النهار ونحن ننظر في عيني بعضنا البعض وسنتم طريقينا المختلفتين

تكلمي أيتها الحبيبة وأعيدى لي الكلمات التى تترنمين بها .

— ٣٦ —

تمتم قائلا : ارفعي ناظريك ياحبيبتي

فزجرته محبيبة . اذهب لشأنك ! ولكنه لم يبرح مكانه .

جلس أمامي وأخذ يدي بين يديه فقلت له دعني وشأني ! ولكنه لم يذهب

قرب وجهه من وجهي فنظرت اليه قائلا . واخجلاه ! ولكنه لم يبد أية حركه .

مست شفتاه خدي فارتعدت وقلت . لقد غلوت في جرأتك ! ولكنه لم يخجل

وضع زهرة في شعرى فقلت له هيهات هيهات لما تبغي ! ولكنه لم يغضب

أخذ عقد الزهر من عنق ثم ذهب . بكيت وسألت قلبي : هلا يعود !

— ٦٣ —

هل انت مضطر لمواصلة سفرك الآن ايها السائح

الليل ساكن وقد ارخى الظلام سدوله على الغاب

تتلألأ المصابيح فوق شرفتنا والازهار نضرة ولم تكد تستيقظ عيون الشباب

هل ازف وقت رحيلك ؟ هل انت مضطر لمواصلة سفرك الآن أيها السائح؟

لم تحط قدميك باذرعنا متوسلين والابواب مفتوحة ، وجوادك مسرج ينتظرك بجانب السياج

لم تسول لنا النفس ان نحجزك الا باغانينا وقد حاولت انظارنا وحدها ان تؤخر سفرك

أيها الراحل اننا عاجزون عن ان نبقيك بجانبنا اذ ليس لنا غير عبراتنا

أية نار مقدسة تلمع في عينيك ؟ وأية حمى اضطراب تجرى في دمك ؟ وأي نداء من الظلمات يحرضك ؟

ما الذى قرأته في صفحة نجوم السماء من عزائم السحر الهائلة حتى يتسرب الليل خفية الى فؤادك وهو الرسول الصامت الغريب ؟

وان كنت تحتقر الاجتماعات المتهللة وترغب ان تخلد الى الدعة والسكون أيها القلب المتعب فاننا نطفيء مصابيحنا ونسكت كناراتنا

وسنجلس هادئين ساكنين في الليل تحت حفيف اوراق الاشجار وسيرمى القمر اشعته الضئيلة على كوتك

ايها السائح !أى شيطان من شياطين الارق سلطه عليك قلب الليل حتى مسك؟

أقاصيص تاجور

نبغ تاجور في الاقاصيص حتى أصبح يضارع أكبر الكتاب فى هذا النوع مثل «دوديه وجي دو موباسان» ان لم يفقهما ، ولقد جمع فى كتاباته بين رشيق الاسلوب وظريف النكات والفكاهات وبلاغة التعبير وسمو الافكار وفخامة المغزى الاجتماعي والادبي

انه يهتم كل الاهتمام بما أوتى من بلاغة وشعر وفلسفة بالمرأة الهندية ولا سيما الايامى إذ هن أتعس وأشقى نساء العالم ، لانه لايجوز لهن أن يتزوجن ثانية وليس لهن بيت ولا ملك .

وقد خصص إحدى رواياته المسماة « الاصدقاء » للمرأة اذ عليها يدور محور الرواية وسيرى القراء فى إحدى الاقصوصتين اللتين اخترناهما وعنوانها « جارتي الجميلة » كيف صور الارملة وكيف رفعها الى أعلى ذروة واسبغ عليها من آيات الجمال والرشاقة باسلوب ساحر وقدرة نادرة

جارتي الجميلة

ان الشعور الذي نفحتني به الارملة الفتية التي كانت متوطنة بجواري ماكان

الا شعور اجلال واحترام وهذا ما كنت أؤكده لاصحابي واعيده لهم حتى ان صديقي الحميم (نابان) كان يجهل حقيقة حالتي النفسية

كنت أشعر بشيء من الكبرياء لانني استطعت ان أحفظ أهوائي نقية طاهرة بان دفنتها فى سويداء قلبي

كانت جارتي أشبه بزهرة (السفالي) بللها قطر الندى ثم سقطت قبل الاوان . كانت متناهية فى الطهر والنقاء وضاءة الجمال فلذلك ما كانت تليق للزواج بل كانت حرية بان تكرس للقاء الخالق .

عاودني هواى العنيف كسيل جارف دوى من شاهق بدلا من أن يستكن ويخمد وطفق يبحث له عن مخرج يشقه

فلذلك بذلت الجهد في التعبير عن تأثري وعواطفي بالقريض ولكن خانني القلم ورفض ان يدنس حبي

شاءت المصادفات في الوقت نفسه ان مني صديقي (نابان) بهوس القريض اذ فاجأه بعنف كزلزال الارض

ولما كانت هذه هي النوبة الاولى التي أصابت هذا الشاب المسكين لم يجد عنده استعداداً لمعالجة النظم والقوافى ولم يستطع أن يثبت امام هذه الصدمة وخضع لهذا السحر خضوع الارمل لزوجه الثانية . وفكر نابان فى الاستعانة بي لاغاثته وعالج الموضوع القديم الابدي الذى يظن دائماً جديداً وهو اهداء قصائده لحبيبته فسألته بعد ماصفعته بلطف على كتفه. «من تكون اذن أيها البطل؟»

فاجابني مبتسما : « انني لا اعرفها »

وقد وجب على ان اعترف بانني وجدت سلوانا عظيما لمجيئى لعون صديقي وكنت أشبه بدجاجة افرخت بيضة بطة واستنفدت كل هواي المتأجج خدمة لنزعات (نابان) الشعرية ونقحت نظمه الرث واشعلت معانيه حتى أصبح أغلب كل قصيدة من قصائده من عملي الخاص

فصاح (نابان) وقد تملكه الدهش: هذا بالضبط ما كنت أريده وما لا استطيع

أن أعبر عنه . وكيف توصلت أيها الشيطان للتعبير عن جميع هذه العواطف اللطيفة؟ فأجبته اجابة شاعر. « يكفي لذلك خيالي وانك لا تجهل أن الحقيقة صامتة وان الخيال وحده يفجر الفصاحة والحقيقة هي الصخرة التي تقف سيل العواطف ولكن الخيال يعرف كيف يشق له فى هذه الصفاة دربا يمر منه »

تلعثم نابان المسكين من الحيرة وأجاب : « نعم نعم لقد فهمت » ثم تمتم بعد ان فكر لحظة « نعم نعم لقد صدق ظنك »

وقد بينت فيما سردته أن حبي كان به عاطفة اجلال واحترام تمنعني عن التعبير عنه بألفاظ . ولما أصبح نابان بمثابة ستر لي لم أجد عائقاً أمامي لنزعات قلبي وتأجج لهيب صادق من هذه القصائد التى نظمت بتفويض من صديقي

قال (نابان) فى آونة كان فيها مطمئن البال مرهف الذهن «ان هذا القريض مما جادت به قريحتك فدعني أنشره باسمك»

— يالله الحماقة ! أنه يخصك ياصديقي العزيز ولم يتجاوز عملي غير التنقيح

وبهذه الوسيلة أعتقد شيئاً فشيئاً حتى صدق ما قلته ولا أنكر ان شعوري كان اقرب الى شعور الفلكي الذي يقلب طرفيه في السماء اذ طفقت أوجه ناظري مثله صوب كوة بيت جارتي . ولقد وافقت نظرتي المختلسة جزاءها اللطيف من مشاهدة من كانت تتطلع اليها وكان أقل شعاع يصدر من هذا الضوء النقي يهديء ويطهر فى لحظة ما كان يكنه تأثري مما يعكر أو يشين

وفي ذات يوم تملكني الدهش فهل أستطيع أن اصدق عيني ؟ اذ هاجت بعد ظهر يوم حار من أيام الصيف ريح الشمال الغربية وهي عنيفة لا نظام لها وظهرت مهددة تبعتها سحب مكفهرة تكاثفت في الافق فنهضت جارتي الجميلة تحدق فى هذا الجو المضيء الغريب المزعج وتقلب ناظريها فى هذا الفضاء المقفر .

وفى هذا التعبير البعيد المنبعث من عينيها اللامعتين السوداوين قد استنبطت عالما عظيما من الانتظار اليائس ! فيالبركان ثائر تحت سكون الاشعة المتلالئة من هذا الكوكب ! وا أسفاه ان هذا النظر المشبع بامانى غير محدودة ، ومن يخيل انه

يحاول أن يطير خلال السحب بعنفوان الطير وخفته وما كان فى الحقيقة ليبحث عن السماء بل كانه يبحث له عن ملجأ لبعض القلوب الانسانية

ولما قرأت الاهواء المبهمة المتصاعدة من هذه النظرات كظمت عواطفي بكل جهد واصبحت لا يقنعني أن اصحح رديء القريض وطمحت نفسى الى الظهور باعمال عظيمة جلية وصممت فى النهاية أن اكرس نفسي لتشجيع الزواج الثاني للارامل ولا اكتفى بنشر افكارى هذه بالكلام والقلم بل بنفوذ المال أيضاً

وقد ناقشني نابان في هذه الفكرة قائلا :

«ان العزوبة الدائمة تشمل في نفسها فكرة طهر وسلام لاحد لهما ورواء وديعه تماثل الاماكن الصامتة التى ينيرها باشعته المحتضرة ضوء القمر الضئيل في ليلته الحادية عشرة . وهلا يكفى الزواج الثاني لتدمير هذا الجمال الرباني ؟ ويجب أن أعترف بان هذا الشكل من سرعة التأثر كثيراً ماضايقنى . وفي أيام القحط كان رجل سمين ضخم يتمشدق بمسائل الغذاء بلهجة احتقار وازدراء ناصحاً من يموت جوعاً بان يتغذى باريج الزهر وغناء الطير فماذا تقول في رجل مثل هذا ؟ فسبقته بالجواب بعنف : «اصخ لي يانابان فقد تكون البيوت المتهدمة للفنان شيئاً يثير اعجابه ولكن المنازل لم تشيد لاسباب الجمال ويجب أن تستمر عامرة بأهلها وتدوم فيها يد الاصلاح والعناية دون اهتمام بسرعة تأثر الفنانين

ومنذ هنيهة كنت تحبذ الترمل وتجعله شيئاً خيالياً ومثلا أعلا ولكن يلزمك أن تفهم أن تحت هذا الترمل يختبيء احساس القلب الانساني الذي يئن ويصعد الزفرات من الالم والرغبة .

كنت واثقاً بأني سأقنع نابان بصعوبة فأفعمت مناقشتى بالاهواء والعواطف ثم دهشت حينما لمحت نابان وهو يزفر زفرة ذاهل فى أمانيه وانتهى الامر به بان وافقنى على آرائي بعد حديثي القصير ، ورأيت أن أستغنى عن النتيجة المفحمة التى كنت أريد أن القيها عليه !

مضى على حوارنا أسبوع فاقبل نابان ليراني وينبئني بانني اذا شددت أزره يكون في طليعة الحركة بان يبني على أرملة

طرت فرحاً وعانقت نابان بحنو عنيف ووعدته بان أمده بما يلزمه من النقود الكافية لمشروعه ثم سرد لي وقائعه

ولقد علمت أن المرأه التي أحبها نابان لم تكن شيئاً خيالياً وانه فتن أيضاً من زمن بأرملة دون أن يفضي بسره لاي انسان

ولقد وقعت المجلات التي نشرت قصائد نابان — وبالاصح قصائدي — في يد الحسناء ولم يكن الشعر عديم الجدوى

وقد وضح لي نابان خبره بالتفصيل وقال لي أنه سولت له نفسه لابعد شأو حتى أنه لم يبحث عما اذا كانت الارملة تجيد القراءة وأرسل المجلات لاخي الحبيبة وأخفى اسم المرسل وكان ذلك منه استرسالا لاهوائه دون أمل

وحينما يضع العابد عقود الزهر فوق أقدام ربة فليس من شأنه أن يعرف أنها كانت تعلم أو تجهل قربانه أو كانت تقبله أو ترفضه

وقد أفهمني نابان أنه ما كان يتتبع شيئاً محدوداً ويبحث عن أخي الارملة وتوصل لان يتعرف به وكل ذي صلة بالمحبوبة يملك نفعاً خاصاً للعاشق

ثم اعقب ذلك خبر مرض الاخ الذي طال وانتهى بالزيارة الاولى . وحينما حضر صاحبنا تناولت المناقشة بالطبع قصائده ولم ينتج من ذلك اقتصار الجدل على الموضوع الذي خرج منه

وفي اليوم الجديد الذي اقتنع فيه نابان بيراهيني استجمع كل قواه لخطبة الارملة ولقد رفضت في أول الامر ولما استعان ببلاغتي واسعدتها دمعتان من عينيه سلمت الحسناء دون قيد ولا شرط . ولم ينقص الآن الا مبلغ من المال يستعين به ولي أمرها لقضاء ما يلزم

— فقلت لنابان : «ان ثروتي رهن اشارتك»

— فاجاب نابان : « ولكني مضطر لان اعترف اليك بانه ستمر بضعة شهور

قبل أن اتوصل لتهدئة أبي والحصول منه على نفقة . وطالما كان أمر النفقة معلقا فماذا نعمل لنعيش ؟

فحررت له حوالة بما يلزمه من المال وقلت له خبرني الآن عن اسمها ولا تعتبرني مزاحما . واني اقسم لك انى لا انظم شيئاً عنها ولو فرضنا وكتبت شيئاً من الشعر فتيقن انى لا ارسله لاخيها بل أوجهه اليك وحدك

— فأجاب نابان : لاتكن غبياً فاني ما أخفيت عنك اسمها خشية من مزاحمتك والحقيقة أن فكرة الركون الى طرق غير مألوفة أثارت اضطرابها . والآن وقد تم كل شيء كما تشتهي وتتمنى فقد برح الخفاء وما هي إلا جارتك المتوطنة فى المنزل رقم ١٩

فثار قلبي كرجل من نحاس يوشك أن ينفجر واكتفيت بان قلت له « الم تبد اعتراضا على زوج ثان ؟ »

— فقال نابان مبتسما : ليس هذا وقته الآن .

— اذن فالفضل في هذا الانقلاب الغريب راجع الى القصائد وحدها

— فاجاب نابان : « هلا كانت قصائدي رديئة لهذا الحد؟»

— فاقسمت له كذبا

ولكن على من تقع تبعة هذا الحنث ؟ عليه أم على نفسى ؟ أم على الحكمة الالهية وهذا لا يهمني فقد حلفت رغماً من هذه الاعتبارات

على ضفاف الكنج

ان كنت تحب العصور السالفة فاجلس بنا فوق درجة سلم الشاطيء هذه وأعر أذنيك لتلاطم اللجج

اننا نقترب من شهر ايلول وقد بلغ النهر غاية فيضانه ولم يبق من درجات سلم الشاطيء غير أربع تظهر من سطح الماء .

بلغ البساط السائل حافة الشواطيء فى المواضع المنخفضة وقد نمت هناك خمائل (الكاشو) المتكاثفة محتمية بظلال المنجة وقد كون التيار العنيف في هذا المكان

زاوية وكشف عن ثلاثة اكوام من آجر طال عليه العهد فى أماكنه . وقد رست سفن الصيد وربطت فى جذوع (البابلاس) وطفقت تؤرجحها الامواج وقت الصباح وكانت المقصبة العظيمة التي كست الكثيب تجتذب اشعة الشمس حتى ازهرت قبل أن تدرك

وكانت السفن تمخر عباب النهر المشمس وهي منتفخة القلوع والكاهن البرهمي يحمل آنيته المقدسة ويتهيأ للاستحمام ، وقد أقبلت النساء مثنى وثلاث يطلبن الماء واعتادت (كزم) أن تظهر في هذه الساعة على درجات السلم لتستحم ولكنني لم أرها فى الصباح وقد أقبلت (يوبان وسوارنو) تتساءلان عن صديقتهما قائلين: «يظهر أنها أخذت الى دار زوجها فى موطن يبعد عن هذا النهر ويمتاز بغرابة سكانه وتفاوت منازله واختلاف طرقه» ثم عفت رسوم كزم من ذاكرتى : مر العام والنساء اللاتي يأتين للاستحمام لايذكرنها إلا قليلا . وفى مساء يوم انتفضت من التأثر اذ عرفت قدمين طالما شاهدتهما ولكن واأسفاه قد أصبحتا عاطلتين من الخلخال وفقدتا رنتهما الموسيقية .

ترملت الفتاة وقيل أن زوجها دعى الى بلد بعيد وأنها لم تره إلا مرة أو اثنتين ثم حمل البريد نعيه ففقدته وهي فى ربيعها الثامن عشر ومحت من جبينها علامة الزواج الحمراء وتجردت ذراعاها من أساورهما ثم ذهبت الى بيت أهلها على ضفة الكنج ولم تجد غير قليل من صويحباتها القديمات وقد تزوجت «نوبان وسوارنو والا» ثم سافرت ولم تبق غير «سرات» التي ثبت أنها ستتزوج للمرة الثانية فى شهر ديسمبر

وفي وقت هطول الامطار وازدياد مياه الكنج كان جمال «كزم» يزدهي يوما فيوما حتى اشرق ولكن ثيابها السوداء ووجهها الكئيب وحالتها الهادئة قد ضربت بحجاب على نضرة شبابها وأخفته كما يحجب الضباب نظر الناس

وقد مر على هذا العهد عشر سنين دون أن يلحظ أحد نمو «كزم» وفى صبيحة يوم بعد هذه الاعوام الطويلة وفى نفس هذا المناخ من اواخر شهر ايلول حضر كاهن فتي عظيم رائق اللون من جهة لاتعلم ليلتجي لمعبد (سيفا) أمام دارى

وانتشر خبره بسرعة فى نفس القرية فتركت النساء جرارهن وذهبن ليحيين القديس . ازدادت الجماعات يوماً عن يوم وذاعت شهرة الكاهن بسرعة بين النساء

وكان الكاهن يقرأ تارة (الهاجبات) وطوراً يشرح كتاب(جيتا) أو يعظ في المعبد مستقياً مواعظه من الكتب المقدسة وكان البعض يستمد نصائحه والآخر سحره أو طبه

مرت الشهور وأقبل نيسان وجاء أوان كسوف الشمس وكثر المستحمون في الكنج وأنشئت سوق تحت خمائل (البابلاس) وشوهد بين الحجاج القادمين لتحية الكاهن سرب من نساء القرية التي تزوجت فيها « كزم»

كان الكاهن في صباح يوم جالساً على احدى درجات سلم الشاطيء وهو يدير سبحته في يده وكان ضمن الحجاج امرأة تشير الى صاحباتها قائلة « ان هذا الكاهن لهو زوج صاحبتنا كزم» ثم أزاحت التي بجانبها قناعها قليلاقائلة : «انه هو بذاته وهو أصغر أولاد أسرة « شياترجو » التي تقطن قريتنا » وقالت ثالثة وهي تنظم قناعها : أن جبينه كجبينه وأنفه كانفه وعينيه كعينيه» وقالت أخرى دون أن تلقى نظرة على الكاهن وقد حركت جرتها في الماء وهي تتنهد: «واأسفاه ان هذا الفتى لن يعود أبداً وواحسرتاه على كزم !»

ولاحظت أخرى قائلة . « انه لم يكن طويل اللحية مثله » وقالت غيرها : « لم يكن هزيلا مثله وقالت أخرى : « يظهر انه كان اصغر سنا»واستمرت المناقشة بهذا الشكل ثم انقطعت

وفي ليلة تم البدر أقبلت «كزم» وجلست على مقربة من الماء فوق الدرجة العليا من سلم الشاطيء فوقع ظلها على وكنا وحدنا على حافة موضع الاستحمام وقد صدح حولنا الجندب وسكنت نوافيس المعبد وخفتت اصوات الامواج عن ذي قبل متهيأة للاختفاء في الخمائل التى لا يحققها النظر من الضفة المقابلة كذكرى الصوت ولمعت اشعة القمر فوق مياه الكنج السوداء ومالت في اتجاه منبع النهر

ظلال خيالية هائلة على السياج والخائل كما مالت على باب المعبد وحوض الماء والنخيل. وكانت الخفافيش تتأرجح فوق أغصان «الشتيم» بينما ينتشر على مقربة من المنازل عواء ابناء آوى ثم لا يلبث أن يستحوذ عليه السكون

خرج الكاهن من المعبد بخطوات متثاقلة ونزل بعض درجات من مكان الاستحمام فلحظ امرأة وحدها وتهيأ للابتعاد حينما رفعت كزم رأسها وادارته فتزحزح قناعها وضاء القمر وجهها

حلقت بومة فوق رأسها ثم صاحت فاقشعرت ولما اطمأن بالها نظمت قناعها ثم وقفت وقفة احترام وخشوع أمام الكاهن فبارك عليها ثم قال لها من أنت فاجابته ان اسمي كزم وفي هذه الليلة لم يتبادلا كلاما غير هذا ثم سارت ببطء الى منزلها وكان على مقربة من هذا المكان ولكن الكاهن لبث مكانه فوق السلم دون حراك ساعات طوالا وفي النهاية حينما غرب القمر وسقط ظل الكاهن أمامه هب ودخل المعبد

ومن هذه الآونة رأيت كزم آتية كل يوم ومائلة بين يديه باجلال وخضوع وكانت تجلس في ركن لتستمع منه شرح الكتب المقدسة وكان يدعوها اليه بعد الانتهاء من صلاة الصباح ويحادثها في مسائل الدين ولكنها ما كانت تستطيع ان تفهم كل ما يقوله بل كانت تصغي اليه بكل دقة وكانت تساعد في خدمة المعبد وتسارع في العبادة وتقتطف الازهار لتزين بها «بوجا» وتحمل الماء من الكنج لغسل ارض المعبد

أصبح الشتاء على وشك الرحيل واستمر الهواء بارداً. وفي بعض الاحيان قبيل المساء يهب نسيم الربيع الحار فجأة من الجنوب وتفارق السماء شكلها الشتوي وكان يسمع من جديد صوت المزامير والموسيقى من القرية بعد السكوت الطويل وسرح الملاحون سفنهم ماخرة الماء وكانوا يقفون التجديف لينشدوا أغاني «كريشنا» وقصارى القول كان كل شيء يبشر بمظاهر الربيع واقباله

وفي هذه الاثناء لم أشاهد «كزم» وقد اختفت من أيام ولم تظهر في المعبد ولا في مكان الاستحمام ولا أمام الكاهن

ولقد جهلت مامر وقتئذ وبعد قليل التقى الاثنان فوق سلم الشاطيء

سألته «كزم» وقد نكست رأسها غاضة طرفها . . هل دعوتني ياسيدي ؟

— نعم. لم انقطعت ولاي سبب أهملت منذ أيام خدمة أربابك؟ فالتزمت الصمت

— خبريني عن فكرتك دون أن تكتمي شيئاً . ثم أدارت وجهها قليلا وأجابت : «انني خاطئة ياسيدى وقد أهملت واجب العبادة» فاجابها الكاهن : «انني أعلم يا «كزم» أن نفسك فريسة الاضطراب والحيرة» فأخذتها هزة خفيفة ثم كشفت وجهها وجلست تحت قدمي الكاهن وانهمرت عبراتها كالوابل فتفهقر الكاهن قليلا ثم قال لها : «أنبئيني عما يجول في فؤادك أرشدك سبيل السلام» فاجابت بلهجة ذات عقيدة ثابتة وكلمات منقطعة : «ان سمحت تكلمت ولكني اخشى ألا أجيد التعبير بوضوح وانك بلا ريب ياسيدي قد حزرت كل شيء . أنني أحببت انساناً حباً يقرب من العبادة وكنت أجله واحترمه ولقد فاض قلبي بالسعادة والهناءة حينما انقطعت لاتمام هذه الشعائر .

ولقد رأيت في منامي معبود نفسي جالسا في بستان قابضا بشدة بيسراه على يمناى متمتما لي في أذني بكلمات ملؤها الحب . ولم أجد غرابة في هذا المنظر. زال الحلم واستمر تأثيره وفي الغد حينما وقعت عيناى عليه ظهر لي بحالة غير التى كنت اعهدها فيه واستمرت صورة الرؤيا في مطاردتي واستحوذ على الرعب وسولت لي نفسي الهرب الى مكان قصي ولكن الصورة ما فتئت مرتسمة في ذهني ومن هذا الوقت لم تعرف نفسى السلام واصبح كل شيء من نفسى غامضا مبهما

وبينما هي تمسح الدموع من عينيها شاهدت الكاهن يدق حجر السلم برجله اليمنى بعنف وحينما انتهت من حديثها سألها

— حدثيني عمن رأيته في حلمك فاجابت اجابة توسل وبداها مضمومتان : «لاأستطيع»

فألح عليها قائلا : « يجب عليك ان تعترفي لي بكل شيء » ثم لوت يديها وقالت له : « أتريد ذلك ؟ » فأجاب : « هذا واجب عليك » فصاحت قائلة : « ما كان الا انت يا سيدي » وهوت على الحجر تصعد الزفرات . ولما عادت الى وعيها واستطاعت الجلوس أجابها الكاهن برفق وصوت عذب : « سأبارح هذه المواطن الليلة ولن ترينني عوض واعلمي انني كاهن ولا أخص هذا العالم ويجب عليك ان تنسيني » فأجابت بصوت خافت : « سيتم ما تريد يا سيدي ثم قال لها الكاهن : (استودعك الله) ثم انحنت كرزم دون ان تنبس ببنت شفة ونفضت غبار قدميه ومسحت به رأسها ثم غادر القرية هذا الرجل الصالح

طلع القمر واعتم الليل فسمعت ارتطام الامواج وهاجت الرياح العنيفة في الظلمات كأنها تريد أن تطرد الكواكب من سمائها

الخشاب الشاعر

هذا النابغة الذي سأحدثك عنه كان ثاني النيرين وأحد الفرقدين في عصره اذ لم يكن لهما ثالث يجاريهما في حلبة القريض ، او يدانيهما في مضمار الادب . ولقد خان الحظ شاعرنا في عصرنا هذا حتى أصبح نسياً منسياً لدى الجمهور ولو انه معروف بين الخاصة من الطبقة الراقية في الادب . ولقد جنت عليه المطابع المصرية اذ لم تنشر ديوانه ، وطبعته مطبعة الجوائب بالاستانة مع مجموعة كبيرة أصبحت نادرة جداً .

خدم الحظ البهاء زهير فطبع ديوانه في أوربا ومصر عدة طبعات بيع بعضها بقرشين حتى انتشر وحفظ منه الفقهاء والمنشدون والمغنون كثيراً وغنوه في الحفلات حتى شاع وملأ الاصقاع مع انه لا يذكر بجانب شاعرنا المترجم به

وكان ثاني النيرين العالم العلامة والشاعر المجيد الذي ضرب بسهم في مختلف العلوم والفنون الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الازهر . وقد ارتحل عن مصر

وقت هجوم الفرنسيين عليها وتجول بين ربوع الشام واشقودره ، ولما آب من رحلته مازج المترجم به وخالطه ، ورافقه ووافقه ، فكانا كثيراً ما يبيتان معا ويقطعان الليل باحاديث أرق من نسيم السحر ، وكثيراً ماكانا يتنادمان فى دار صديقهما الحميم الوفى الشيخ الجبرتي ويطرحان التكلف ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان في كل فن جولة ، وكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض ، وافتك بالعقول من الحدق المراض، وهما حينئذ فريدا عصرهما،ووحيدا مصرهما لم يعززا بثالث في ذاك الوقت

كان والد المترجم به نجاراً ولما راجت صناعته فتح مخزناً لبيع الاخشاب بجانب تكية الكلشني بالقرب من باب زويلة ، وارسل ابنه الى الكتاب فحفظ القرآن ، ثم طمحت نفسه الى طلب العلم فذهب الى الازهر ولازم حضور السيد على المقدسى وغيره من أفاضل الوقت فأنجب في فقه الشافعية والمعقول بقدر الحاجة، وشغف بمطالعة الادب والتاريخ والتصوف حتى أصبح نادرة عصره في المحاضرات والمحاورات واستحضار المناسبات

ولدماثة أخلاقه ، ولطف سجاياه ، وكرم شمائله ، وخفة روحه صحبه كثير من أرباب المظاهر والرؤساء والكتاب والامراء وكبار التجار

يقول لنا الجبرتي ان شاعرنا السيد الشريف أبا الحسن اسماعيل بن سعد ابن اسماعيل الوهبي الحسينى الشافعي كانت له قوة استحضار في ابداء المناسبات حسبما تقتضيه حال المجلس ، فكان يجانس ويشاكل كل جليس بما يدخل عليه السرور ويأسر لبه بلطف سمره ومنادمته الجذابة الخلابة

ولما دخل الفرنسيون مصر عين المترجم به محررا لتاريخ حوادث الديوان وقرر له الجنرال جاك منو في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة

علق المترجم به شابا من رؤساء كتاب الفرنسيين وكان جميل الصورة لطيف الطبع عالما ببعض العلوم العربية ويحفظ كثيرا من الشعر ، فلتلك المجانسة فى الميول مال كل منهما الى الآخر حتى كان لا يقدر احدهما على مفارقة صاحبه ، فكان

المترجم به تارة يذهب الى داره وطورا يزوره هو ويقع بينهما من لطيف المحاورة ما يتعجب منه ، وهو الذي فتح الشاعر بهذه النفحات العظيمة والغزل الفائق

ولم يزل المترجم به على حالته ورقته ولطافته مع ما كان عليه من كرم النفس والعفة والنزاهة والولع بمعالي الامور والتكسب وكثرة الانفاق ، وسكنى الدور الواسعة وكان له صديق يسمى أحمد العطار بباب الفتوح توفى فتزوج شاعرنا امرأته وهي نصف ، وأقام معها نحو ثلاثين سنة ولها ولد صغير من زوجها المتوفى فتبناه ورباه ورفهه بالملابس وأشفق عليه اشفاق والد بولده ، ولما ترعرع زوجه واقام له مهرجانا فخما ، وبعد سنة من زواجه مرض اشهرا انفق فيها كثيراً من المال عليه ، ثم قضى الغلام نحبه فجزع عليه جزعاً شديداً وأقام له مأتماً عظيما ، واختارت أمه دفنه بجامع الكردي بالحسينية ورتبت له رواتب وقراء واتخذت مسكنا ملاصقا لقبره اقامت به نحو الثلاثين سنة ، وهي مداومة على عمل الشريك والكعك بالعجميه والسكر وطبخ الاطعمة للمقرئين والزائرين كل جمعة على الدوام ، وشاعرنا طوع امرها في كل ما طلبته ، وكان كل ماوصل اليه من مال او كسب ينفقه عليها وعلى أقاربها وخدمها لا لذة له في ذلك حسية ولا معنوية . لانها فى ذاتها عجوز شوهاء وهو نحيف ضعيف الحركة جدا ، ومرض بحصر البول مع الحرقة والتألم وطال عليه حتى لزم الفراش أياما ، ثم توفى في يوم السبت ثاني الحجة سنة ١٢٣٠ بمنزله الذي استأجره بدرب قرمز ، وصلى عليه فى الازهر في مشهد حافل ودفن عند ابنه المذكور بجامع الكردي .

وقد اهتم الشيخ حسن العطار بجمع ديوان الخشاب فى حياته سنه ١٢٢٧ لاعجابه الشديد برقته وبلاغته وسمو خياله ، أي قبل موته بثلاث سنين ، ويؤيد ذلك التاريخ الذي وضعه ناسخ الديوان محمد صالح الفضالي الواقعي المصرى إذ انتهى من نسخه فى يوم الاحد ١١ شوال سنة ١٢٢٧ . وقد عاش المترجم بعد جمع ديوانه ثلاث سنين ، ولا يبعد انه نظم فيها شيئا ليس بالقليل ، ولانه لم يترك عقبا امتدت يد الشتات الى نظمه الاخير .

لانعرف بالضبط التاريخ الذى بدأ فيه بمعالجة القريض وأقدم تاريخ فى ديوانه سنة ١٢٠١ يؤرخ به ميلاد ابن أبي الانوار السادات ، ومن ذلك يعلم انه مكث يقرض الشعر اكثر من ثلاثين سنة

طرق الشاعر عدة أنواع من الشعر وهي الغزل والخمريات والمدح والرثاء والتهاني والوصف والموشحات والادوار . وان القينا نظرة عامة فى شعره وجدناه صادق الوصف منسجم السياق رشيق الاسلوب يحسن اختيار الالفاظ ، موسيق الاوزان ، خفيف الروح فخم التراكيب ، مسلسل المعاني متصلها ، ولم نر فى جميع ديوانه شيئاً من الهجو ، وهذا مما يدل على سمو أخلاقه .

ولغزله المكانة الاولى ولا سيما ماقاله في صديقه الفرنسى الذي سبق الكلام عنه ، فانه يتأجج بعنيف العواطف والصراحة في القول ورقة التعبير ورشاقة الوصف . ومن أرق قوله فيه :

أدرها على زهر الكواكب والزهر ... وأشراق ضوء البدر في صفحة النهر
وهات على نغم المثانى فعاطنى ... على خدك المحمر حمراء كالجمر
وموه لجين الكأس من ذهب الطلا ... وخضب بناني من سنا الراح بالتبر
وهاك عقوداً من لآلي حبابها ... فم الكأس عنها قد تبسم بالبشر

الى أن قال في آخر القصيدة .

وفوق سنا ذاك الجبين غياهب ... من الشعر تبدو دونها طلعة البدر
ولما وقفنا للوداع عشية ... وأمسى بروحي حين جد السرى يسري
تباكي لتوديعي فابدى شقائقا ... مكللة من لؤلؤ الطل بالقطر

وقال فيه أيضا :

علقته لؤلؤي الثغر باسمه ... فيه خلعت عذارى بل حلانسكي
ملكته الروح طوعا ثم قلت له ... متى ازديارك لي افديك من ملك
فقال لى وحيا الراح قد عقلت ... لسانه وهو يثنى الجيد من ضحك
اذا غزا الفجر جيش الليل وانهزمت ... منه عساكر ذاك الاسود الحلك

فجاءني وجبين الصبح مشرقة عليه من شغف آثار معتركه
في حلة من اديم الليل رصعها بمثل انجمه في قبة الفلك
فخلت بدراً به حفت نجوم دجى في حندس من ظلام الليل محتبك
وافى وولى بعقل غير مختبل من الشراب وستر غير منهتك

ومن أروع ماقال فيه موشحه الذي عارض فيه موشح الشيخ حسن العطار الذي مطلعه :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت في الهوى بدلا (فاعجب)

وهذا الموشح الذى يسيل رقة ورشاقة مخمس ومرفل قال رحمه الله :

يهتز كالغصن ماس معتدلا اطلع بدراً عليه قد سدلا (غيهب)
ريم يصيد الاسود بالدعج
يسطو بسيف اللحاظ في المهج
يزهو لعيني بمظهر بهج
فكيف أبغي بحبه بدلا وليس لى عنه جار أو عدلا (مهرب)
وضاح نور الجبين ابلجه
وردي خد زها توهجه
اليه شوقي يزيد لاعجه
فلست أصغى لعاذل عذلا وعنه والله لا أتوب ولا (أرغب)
الي شهي الرضاب واللعس
يزرى غصون الرياض بالميس
يختطف اللب خطف مختلس
نويحل الحضر ينشني أسلا من رام يوما اليه أن يصلا (يحجب)
قطع قلبي بحبه اربا
وصد عني فلم أنل أربا
أواه أواه منه واحربا !

أصلي فؤادى بخده وقلا وذبت وجداً به ولى قتلا (فاعجب)

مجوهر الثغر يلفظ الدررا

يدمي فؤادى وخده نظرا

علم عيني البكاء والسهرا

فانهل دمعي كالوبل وانهملا بالدم خدى عند ما هطلا (خضب)

مولاى رفقا بصبك الدنف

قد كدت اقضى عليك من أسف

تلاف روحي فقد دنا تلفي

من ريقك العذب أروني نهلا وهات كأسى وطف بها عملا (واشرب)

راحا سناها يضيء كاللهب

تبسم عن رطب لؤلؤ الحبب

عطر مازح ثغرك الشنب

بين رياض ومسمع غزلا على المثاني اذا شدا رملا (اطرب)

والورق من حسن صوتها الغرد

تميل قضب الرياض بالميد

وتوج الدوح لؤاؤ البرد

تاجاً من الدر نظمه كملا فكن من اللهو سالكا سبلا (وادأب)

ومن درر نظمه خمريته :

ادر السلاف على صدى الالحان ودع العذول بجهله يلحاني

واستجل بكر الراح في ظل الربى بين الرياض تزف والعيدان

شمس لها من فوق خد مديرها شفق الصباح اذا بدا الفجران

نور ولكن من سنا لألائها في الخد نار فؤادها الولهان

نار لها في وجنتيه وكفه لهب به اعشو الى النيران

من كف معتدل القوام كانه قمر يلوح على غصين البان

نشوان من سكر الشباب يهزه من خمر فيه وراحه سكران
ومهفهف ماء الحياء بوجهه يزرى بهي شقائق النعمان

الى أن قال :

ليث العرين له تلفت جؤذر يفتر عن در على مرجان
متلالىء تحت الشعور جبينه كحسامه في غيهب الميدان
عربي لفظ اعجمي المنتمي هندى لحظ صائل بيان
غصب النجوم فصاغهن اسنة وبفيه نظمها عقود جمان

والقصيدة طويلة والجزء الغزلى فيها يرجع الى صديقه الفرنسى . ومن الطف قوله قصيدته التى يمدح بها السادات

وصلتك واضحة الجبين المسفر من بعد طول تمنع وتستر
قامت فخالست ازديارك قومها وتربصت سحرا هجوع السمر
وأتت ترنح كالقضيب اماله نفس الصبا وتجر فضل المئزر
هيفاء يخجل لحظها وقوامها بيض الصفاح وكل لدن اسمر
ما انس لا أنسى ليالي وصلها بين الرياض وحسن نغم المزهر

الى أن قال :

من سادة ورثوا النبي وجاهدوا في دينه حق الجهاد الاكبر
من خير بيت من ذؤابة هاشم من معشر أكرم به من معشر

والقصيدة طويلة .

ومن أروع شعره قصيدة فقد مسودتها وراجعه فيها الشيخ حسن العطار فذكر له منها أحد عشر بيتاً من وسطها ونسى الشاعر مطلعها وآخرها

ولرب ليل قد أبيت بمنجه أطوى هضاب فدافد ووهاد
بأغر أجرد ضامر لكنه جلد العزائم عند كل جلاد
متعود وطء الاسنة فى الوغي متجشما فى الروع هول طراد
ظن السيوف جداولا وعوامل المران أغصان القنا المياد

الى ان قال

متقلدا عوض السيوف عزائمي متسربلا بدل الدروع فؤادى
حتى بلغت أخا السماحة والندى وابن السراة السادة الاجواد

لقد فات الجبرتي أن يخبرنا عن ارتباط شاعرنا بعصر المماليك قبل دخول الفرنسيين وفترة الاربع السنين التى تولى الحكم فيها ولاة الاتراك والعصر الذى عاشه فى عهد ساكن الجنان محمد على باشا

للمترجم به من النثر بعض مراسلات وتقاريظ مسجعة كعادة أهل عصره رحمه الله رحمة واسعة وألهم المصريين تخليد ذكره واعلاء شأنه .

الاميرة نائلى فاضل

أصبحت أيها القصر الشامخ قاعاً صفصفاً وقد خيمت عليك الوحشة والكآبة وكتمت أنفاس نسيم صباك بعد ما كان مروحا فوقك يعبث بافنان ايك احتضنك واظلك

أكمد الحزن عنادل كانت تصدح متهللة فوق الاغصان لا تفارقها اذ كانت تجد أمامها أقواتها في كوى القصر فتطعم منها وهي آمنة مطمئنة وربة القصر تنظر اليها وهي مفترة الثغر مستبشرة تماثل الزهرة في جمالها ورشاقتها

ما أقسى فؤادك أيها المنون وما أغلظ كبدك أما راعتك هذه المحاسن الفتانة والمواهب النادرة والذكاء الغريب؟ ألم تأخذك الشفقة والرحمة على مئات من باثسات وأيتام لم يكن لهم عائل غيرها ؟

لم ير الشرق سيدة تضارعها جمالا وكمالا واقة وذكاء ورقة وكرما وعلما بأحوال الممالك وسياستها وعاداتها تحسن أغلب اللغات الافرنجية

ابنة ذاك الامير الجليل مصطفى باشا فاضل وهو أول من سعي وراء الدستور قبل مدحت باشا بعدة سنين و كان من وزراء السلطان عبد المجيد وقد نفي في باريس

الاميرة نازلي فاضل

بسبب بحثه وراء الحرية . وقد أنبتها نباتاً حسناً وكلف المعلمين الاكفاء بتربيتها وتهذيبها منذ صغرها فدرست العربية والتركية والفارسية والفرنسية والانجليزية والطليانية والالمانية والبيانو والاشغال اليدوية

تزوجت من صغرها من خليل باشا شريف اخي علي باشا شريف وقد خدم زوجها الدولة العلية فكان وزيرا للنافعة وسفيرا لها في لندرة وفينا وباريس وبرلين وكانت تعيش معه في هذه العواصم وهي موضع الاعجاب والاجلال عند الغربيين لجمالها وتربيتها وآدابها السامية وفصاحة لسانها

ولقد دهش البرنس بسمارك من مواهبها النادرة . ومما يؤثر عن المركيز سالسبوري أنه حينما أرسل الى الاستانة السير درومو ند ولف أوصاه بان لا يعمل شيئاً بخصوص مصر قبل استشارة الاميرة نازلي فاضل .

كان السلطان عبد الحميد يجلها ويحترمها ويعطيها من الحرية في القول والحكم أمامه فى محادثته مالو نطق به أعظم عظيم لكان جزاؤه النفى

وكان يمنحها كل شهر مائة وخمسين جنيها لما لها من المكانة عنده وسابق خدمات أبيها وزوجها للدولة العلية

كانت تميل كل الميل الى محادثة كبار العقول وعظماء الامة ومنافستهم فى الاحوال الاجتماعية والسياسية كما أنه مامن كاتب من كبار كتاب الغربيين والسياسيين ومشاهيرهم وأمرائهم يعرج على مصر إلا ويقابلها ويستمد رأيها

يرى الداخل فى بهوها الذي رتب على أجمل شكل وأحسن نسق أن جدرانه تكاد تستره صور عظماء الدولة ومشاهير الرجال وكثير من الاسرة الخديوية وشائق الصور الزيتية اليدوية والاثاث الثمين وقد وضع على أجمل ذوق والنباتات الجميلة وقد زادته بهاء ورونقاً وكان لها غرام عظيم بالازهار وكانت مدام ايجيرت ترسل لها كل يوم جميل الازهار واندرها فترتبه فى الآنية البديعة الصنع حتى بلغ من فرط شغفها بها أنها حينما تستيقظ فى الصباح تهرول اليها وتغير ماء آنيتها وترمي ماذبل من الازهار ولا تدع واحدة من أتباعها تمد يدها اليها . وكانت تحب الموسيقى وتعد من أمهر الموقعات على البيانو

زارها المسيو دوجيرفيل الكاتب الشهير في اوائل سنة ١٩٠٥ ليستمد بسديد آرائها ويستطلع فكرها لتكون نموذجاً في كتابه عن المرأة المصرية . وكان فى حضرتها المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وابن أخيها الامير حيدر باشا فاضل وهو أعظم شاعر فى اللغة الفرنسية بمصر . وقد نشر كثيراً من شعره فى (الجورنال دوكير) وألقى بعضاً من قصائده فى نادى المدارس العليا

بهت الكاتب حينما رأى هذا النظام البديع وتلك الصور والاثاث الفاخر

والذوق السليم الذي نسقها والاريج المنعش الذى يتضوع من الازهار المبثوثة فوق المناضد والكوى . زاد دهشه حينما سمع منها قولا فصيحاً والقاء يسحر السامع وذكاء متناهيا وآداباً سامية

دار بينهما الحديث على كثير من الامور وعظماء الرجال والتربية والاحوال الحاضرة وجاء فى الحديث ذكر اليابان فتكلمت عنها الاميرة واسهبت في وصفها ورجالها حتى قال عنها الكاتب الشهير انها تعرفها أحسن منى . وقد قالت في عرض كلامها لو كان عندنا رجل مثل اوياما الذى اجله كل الاجلال لما وصلنا الى هذا الحد . وانتقل الحديث الى الموسيقى وغيرها والتعليم فقالت الاميرة كل الناس من كبير وحقير يتهافت على التعليم ولو أصبح الكل ذوى ألقاب وشهادات فاين يجد الناس لهم خدما واتباعا فخير للفتى ان يتبع صناعة ابيه ويرثها منه ولولا ضيق المكان لسردنا المحادثة بنصها وفصها

توفى زوجها من أعوام طوال وعاشت بعده اكثر من عشرين سنة دون ان تتزوج ثم ساقتها المقادير الى الاقتران بالسيد خليل بوحاجب من موظفي الحكومة التونسية وابن الشيخ سالم بوحاجب مفتى ديارها وشيخ جامع الزيتونة وهو مدرسة اسلامية

لم ترزق بعقب لا من زوجها الاول ولا الثاني الى أن توفيت وهي فى العقد السادس ولم تقهر السنون لها جمالا . وقد كانت مثالا للبر ومواساة البائسين وكانت تنفق كل شهر مائتى جنيه لنحو مائة أسرة أخنى عليها الدهر والبعض منهم كان ينتمي لابيها او والدتها وقصارى القول انها كانت فخر نساء الشرق وموضع اعجاب الغرب

اللهم ارحم أم المحسنين واسكنها أرفع مكان من فراديس الجنان مع المتقين الابرار والصالحين الاخيار

انشراح هانم شوقي

لم تكد ترقأ عبراتنا وتسكن زفراتنا على باحثة البادية حتى داهمنا مصاب أليم بموت كاتبة من فضليات المفكرات اللاتي كرسن حياتهن لترقية عالمنا النسائي والاخذ بناصر أمهات رزحن طويلا تحت كلكل الجهل وتخبطن فى غياهب الخزعبلات والترهات فقضين بالتعس والشقاء على انفسهن واولادهن وبعولتهن

اختطفت المنية يوم الاثنين ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١٨ السيدة انشراح هانم شوقي وهي في ريعان شبابها اذ لم تتجاوز السابعة والعشرين بعد ما عانت آلام المرض شهوراً طوالا وقاست نكد الزمان وعناده اعواماً

أنبتها والدها المرحوم مصطفى بك شوقي و كان مستشاراً في محكمة الاستئناف نباتاً حسناً وهذب نفسها تهذيباً راقياً فاتمت دراستها في مدرسة (الراعي الصالح) الفرنسية

توفى والدها وهي صغيرة ولما بلغت العشرين زوجها أخوها رجلا جاهلا غير كفؤ لها فلم تطق أن تعاشره أكثر من بضعة شهور رزقت منه في أثنائها غلاما يبلغ الآن السادسه تلوح عليه مخائل ذكاء أمه

فاجأتها المنية ولم تنل من دهرها أملا من آمالها التى كانت تجيش فى نفسها الكبيرة

انقطعت للعلم بعد التخلص من بعلها فكانت تقضى نصف النهار في دار الكتب السلطانية والنصف الآخر في بيتها للكتابة والتأليف

لم تكن كاتبا من الكاتبات مقتصرة على البحث السطحي في النسائيات بل كانت ملمة بجانب عظيم من الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتاريخ والتاريخ الطبيعي والآداب الغربية و كانت كاتبة قديرة مجيدة في اللغة الفرنسية وقد صنفت خمسة مؤلفات باللغة الفرنسية وهي :- ١- رقص الاموات — مطبوع - ٢- روح الانسان هو مقدار من كهرباء ومغناطيس الطبيعة المكتشفة - ٣- وحدة الدين واللغة والمنشأ

٤ـ تولد المركبات من الاختلاط أو النمو التدريجي للطبيعة ـ ٥ ـ مدة وجود روح الانسان وتأثير استدعاء الارواح والتنويم المغناطيسى

ومن محاسن الفقيدة أنها لم تر فى حياتها متبرجة أو متعطرة أو لابسة زيا يخالف الآداب بل كانت كالزاهده وكانت تقول لمن يعترض عليها من صديقاتها مامعناه:

احمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

الا فتى يحمل عنى ثقله

حاولت المبكية ان تنشىء مجلة تنشر فيها مبادئها وافكارها ولم تترك وسيلة حتى عملتها ولكن لم يسمح لها

ان من يلقى نظرة على كتابها رقص الاموات يراه منطويا على ادب جم وعواطف من نار وخيالات سامية وشعور نبيل يئن ويشفق لآلام الانسانية

وانا نسرد للقراء جزءاً من نتيجة الكتاب ليكونوا على بينة مما وضحناه :

«أيها النبل المحبوب ! يامن هو سميرى في آلامي وسلواني في وحدتي انني أجد صدى روحي حينما أنصت الى صوتك ، تنفحني أحياناً نغمات لجبك الشجية بالسعادة والامل . ويخيل الي وقت اضطراب أمواجك الهائجة المزبدة وتكسرها على الشواطىء انها تبكي ماضياً لن يعود الى الابد أو أنها تحتج على مظالم الناس واستبدادهم

ليت شعري أتنسب هذه المظالم الى الانسان ام الى الحروب ؟

أيها المستقبل الغامض الذي لا يسبر لهغور !

الى أى حظ تقودنا ؟ ترى تلك أيام حداد دائم . او انك لتنتقم من هـذه الاعوام القاسية تريد ان تحقق صورته التى تموج في فكرنا ؟

نستودعك ربا عادلا يجزى همتك بالرحمة والرضوان وينيلك اضعاف ما أملت في الدنيا من فسيح الجنان وان أمتك لن تنسى شبابا ذهب ضحية الاخلاص ولم يكافأ فى دنياه بلحظة من الهناءة تنسيه آلامه أو تنيله بعض آماله

نابغة شرقي مجهول

زرت ذات ليلة صديقاً من الزملاء فتبادلنا الحديث ثم تنقلنا في السمر فقال لي في عرض حديثه انك لسعيد الحظ بهذه الزيارة إذ سيفد علينا بعد قليل أستاذي في البيانو وهو نابغة شرقي مجهول ثابر على العمل بما أوتيه من حول وطول دون أن يطنطن أو يعلن عن نفسه باساليب حب الشهرة الكاذبة المعروفة وستبتهج حينما تتجلى لك حقيقته ويشنف سمعك بآيات سحره ونفحات خياله الفتانة

وبعد قليل طرق الباب فهرع رب البيت للقاة الطارق فوقفت وعنق مشرئب نحو الباب فشاهدت رجلا طويل القامة نحيلا أسمر اللون قد وخطه الشيب يتوقد الفن من عينيه، وديع هادىء متواضع لا تمر الانانية على لسانه

اكبرت الرجل وافعم فؤادي هيبة ووقاراً وطفقت اتفرس فيه لاقرأ ما ارتسم على وجهه من مخائل النجابة ودلائل النبوغ وتهلل قلبي فرحاً وابتهاجاً اذ تحققت بعض أماني وعثرت على حين غفلة على شيء مما كنت انشده فلا اجده

وبعد التعارف وتبادل التحيات تجاذبنا أطراف الحديث ثم تفضل علينا ووقع لنا بعض قطع من تأليفه مثل النشيد الوطني العثماني وسنفصل للقراء خبره عند موضعه وقطعة أخرى أسمها (خمسة عشر تنويعاً على لحن مصري) وهذه القطعة عبارة عن المذهب في أغنية (حود من هنا نعال عندنا) وقد نسج عليه خمسة عشر تنويعاً مع مايستدعيه من الحليات (والارموني) بشكل فني تعجب به الاذنان الشرقية والغربية وذوق سليم ورشاقة ساحرة فغرقت في هذه الآونة في لجة من الملذات غمرت نفسي وجثماني وجعلتني كالذاهل من عجائب حلم من الاحلام اللذيذة التي لم تتحقق

ثم رجونا منه ان يتكرم بتوقيع شيء من الموسيقى الغربية فوقع (الفالز كروماتيك) لجو دار الموسيقى الفرنسي وهو من القطع السريعة العويصة واعقبه (بسونات) البدر ليلة تمه لبتهوفن فاطربنا وأشجانا بفنه ورشاقة توقيعه

شاب صفائي وبشرى شيء من الكدر والخجل من نفسي اذ صدر بحثي

(الموسيقى الشرقية ماضيها وحاضرها ونموها فى المستقبل) والذى طبعته جماعة اصدقاء الموسيقي بالاسكندرية خلواً من هذا النابغة فقلت لنفسي لقد علمت شيئاً وغابت عنك أشياء وماذا يقول القراء الذين يعرفون هذا النابغة ولي بعض العذر اذا جهلته لان قومنا لم يرغبوا أن يقدروه حق قدره ويساعدوه على اتمام مشروعاته النافعة وينتفعوا بعلمه ويستعينوا به على ترقية موسيقانا الشرقية

طمحت نفسى لصداقة هذا النابغة فدعوته لتشريفى بمنزلي حتى أجرأ على زيارته وأطمع في استماع مؤلفاته ومشاهدة اختراعاته التي سمعت عنها اخيراً ثم ضرب لي موعداً لزيارته بمنزله وفي هذه الاثناء زفت الينا الجرائد خبر انعام الحكومة الفرنسية على نابغتنا هذا بوسام التعليم العام من درجة (أوفسييه) اعترافا بفضله في الموسيقى وقد سبق أن أنعمت عليه من بضع سنين بوسام الاكاديمي الفرنسية من درجة أوفسييه

تهللت لهذا النبأ وعظم الرجل في عيني وطفقت اعد الموعد بالساعات لا أمل بمشاهدته واستماع شائق مؤلفاته وبدائع نفحاته وأبتهج بالاصغاء لتاريخ حياته الفنية

ذهبت مع صديقي في الليلة التي حددها لنا فقابلنا بالبشر والايناس وبعد تبادل التحية وتناول الشاي رجوت منه أن يشنف أسماعنا بشيء من مؤلفاته فذهب الى غرفة مجاورة ثم أقبل يحمل كراسات ضخمة هاجت تطلعي فحملقت اليها حينما وضعها بين يدي وتفرست في عنوانها فاذا هي (كنعان جوبانلري) أى رعاة كنعان ثم قرأت تحت العنوان أوبه ره — اوج برده أي أوبرا ذات ثلاثة فصول فزاد دهشي وابتهاجي واجلالي لذاته وتصورت انني في حضرة فاجنر أو بتهوفن ثم تشجعت والتمست منه ان يسمعنا فافتتحها الموسيقية وقطعة من موسيقاها السانفونية وأخرى من أغانيها وأناشيدها ورقصها فوقعها وكلنا آذان صاغية فما أحيلى ماسمعناه وما أحسن ماحوت من بدائع الفن ورشاقة الاسلوب ورقيق العواطف وحماسي الاناشيد

ولقد أثار في نفسي اماني اخرى وهي ان ارى هذه الاوبرا تمثل امامي واسمع الحانها من اوركستر كبير تام

ثم قدم لي نسخة من متن الاوبرا فاذا به مما جادت به قريحة الكاتبة التركية العظيمة (خالدة اديب) وزيرة المعارف التركية السابقة فغبطته على عطف وحفاوة كاتبة الشرق الكبرى ومؤلفة (قميص من نار) والموضوع يشمل قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع اخوته وعزيز مصر وامرأته

رجوت من نابغتنا ان يحدثني عن تاريخ حياته الفنية وتأليفه ومشروعاته فقام وأحضر لي عدة شهادات من جميع اساتذة الكونسرفاتوار وفي طليعتهم المسيو لافينياك مدير الكونسرفاتوار بباريس وكان من أعظم المعجبين به وقد اهداه صورته الفوتوغرافية ثم انبرى يحدثنا عما طلبناه

ولد في عام ١٨٧٦ وسافر الى باريس لاول مرة في سنة ١٨٩٢ ثم انتظم في سلك طلب الكونسر فاتوار سنة ١٨٩٣ فتلقى علم الارمونى على المسيو لافانياك كبير أساتذة الكونسرفاتوار وفن الاركستر على المسيو فيدال وفن التأليف والتلحين على المسيو لوتوفو والغناء على المسيو جيروديه والمسيو اوجيز والبيانو على المسيو رونان وتاريخ الموسيقى على المسيو بورجوا دوكودريه والارغن على المسيو جيمار

ولقد مكث في المعهد الموسيقى لغاية سنة ١٩٠٢ حتى انتخبته كنيسة سانت ايسبري موقعاً للارغن واستمر في هذه الوظيفة حتى عام ١٩١٠ اذ قدم استقالته وسافر الى الاستانة ليقدم نشيده الوطني العثماني الى مجلس المبعوثان فصادق عليه بأغلبية الاصوات واعطوا له صورة من محضر الجلسة بتوقيع الاعضاء وأرسل اليه جلالة السلطان محمد رشاد خطاب تهنئة واستدعاه رئيس مجلس المبعوثان احمد رضا بك وهنأه باسم جميع أعضاء المجلس وفي هذه السنة نفسها أقامت البحرية التركية احتفالا فخما لمساعدة الاسطول العثماني حضره أكثر من ستة آلاف من طلبة المدارس والقوى البرية والبحرية في الاستانة فانشدت كل هذه الجموع النشيد الوطني الذي لحنه نابغتنا وكانت أصواتهم المصحوبة بالموسيقات البرية والبحرية

تشق الجو كالرعد القاصف وقد قدر المشاهدون بنحو ثلاثين الفاً ونشر هذا النشيد في سنة ١٩١٠ بملحق الانسيكلوبيدى لاروس الشهري عند الكلام على كلمة (تركيا)

ذهب الاستاذ الى سوريا سنة ١٩١١ وأسس بها دار الموسيقى وقد خصص لها محل (بلبيل) الشهير بباريس جائزة سنوية وهي بيانو من صنعه تمنح الى انجب التلاميذ الذى يحرز قصب السبق في مضمار الامتحان

وفي عام ١٩١٧ طلبت أستاذنا حكومة الاستانة لانشاء مدرسة موسيقية في وزارة البحرية

وفي سنة ١٩١٩ ذهب الاستاذ الى باريس ليبحث مع مدير مصنع (بلبيل) في مسألة تركيب السلم الموسيقي وانشاء آلة للاصوات الشرقية وكان من رأي المسيو جوستاف ليبون مدير المصنع أن تربط ثلاثة بيانات بمعزف (توش) واحد بواسطة الاسلاك الكهربائيه لدرس الاصوات الزائدة

وفي عام ١٩٢٠ رجع الى سوريا وطفق يفكر في اختراع آلة تعطي الاصوات الشرقية حتى اوجدها وجعل يدخل فيها من التحسينات كل ما يخطر بباله

وفي سنة ١٩٢٢ ذهب الى باريس واخذ معه هذه الآلة فعمل مثلها آلة اخرى تدار بالكهرباء بواسطه انابيب هوائيه ومنافيخ من الكاوتشوك ولكن اصواتها لم تحرز من النقاء والضبط ما أحرزته الآلة التي صنعها في سوريا .

ثم انشأ يفكر في صنع بيانو مناسب للاصوات الشرقية يشمل المقامات الكاملة والانصاف والارباع فتوصل باجتهاده الى تنفيذ فكرته بشكل افضل من الانواع التي ظهرت اخيراً بمصر اذ جعل فوق التوش السوداء توشا جوزي اللون بارزاً قليلا عن الاسود للارباع مطارقها الوترية موضوعة في صف واحد فوق المطارق المعتادة بمسافة ولكن ظهرت عقبة صغيرة وهي ضبط الاصوات وستذلل قريبا لان العمال الافرنج لم تتعود اذانهم بعد على الاصوات الشرقية وارباعها

في نفس هذا العام ارسل له الجنرال جورو خطاب تهنئة لايجاد البيانو الشرقي وبعث اليه المجلس النيابي خطابا مماثلا

طرق نابغتنا عدة أنواع من التآليف الموسيقية ونجح فيها وبهر وأهم مؤلفاته الآتيـة

النشيد الوطني العثماني ، ٣٠ لحناً وتنويعا شرقياً ، ١٢ ترتيلا دينياً من الصولو طبعت بباريس ، نشيد موسي ، ترتيل، فالز للكونسير، جافوت من مقام الري مينور، رعاة كنعان اوبيرا تركية ذات ثلاثةفصول كتبت موضوعها الكاتبة التركيةالكبيرة خالدة أديب هانم

لنعد الى وصف الآلة التي اخترعها أستاذنا وهي عبارة عن صندوق بشكل المكتب الامريكاني بجانبها الايمن محرك يدار بالرجل فيدير عجلة بها سير يدير ترسا صغيراً من الخشب له ثلاثة مضارب متحركة بشكل ابي رياح وهذه المضارب مغطاة باللبد وعلى سطح الآلة وتر من السلك واحد وبجانبي الوتر اكتافان من التوش مثل البيانو وحيما يوقع عليها تعفق الوتر بمقصات من الحديد وتخرج اصواتاً نقية مضبوطة والارباع لها توش ثالث فوق السود وناتئة عنها ولقد انفق الاستاذ اكثر من خمسة آلاف من الجنيهات على هذه الآلة واختها والاخرى التى تدور بالكهرباء

ليس نابغتنا من الاغنياء ولكن شغفه بالفن وتفانيه في خدمة الموسيقى الشرقية جعلاه يضحى كل ما أوتي من مال ونشب دون تردد

ولا شك في ان القاريء فرغ منه الصبر وزاد به الشوق لمعرفة اسم هـذا النابغة ولكنى اردت ان استدرج بعض القراء الذين لا يقرأون الا العناوين أو بضعة سطور من راس الموضوع ولا يقدرون الابحاث قدرها فليفخر الشرق بنابغته الاستاذ وديع صبرا وليوله الزعامة من النهوض بموسيقاه ولتطأطأ له الرؤوس اجلالا وليقل القراء معي المتمشدقين والجامدين المحافظين على القديم : اطرق كرى ان النعامة في القرى